آراء المستشرق الألماني: «كارل بروكلمان»

عن عصر الخلفاء الراشدين في كتابه: «تاريخ الشعوب الإسلامية»

دراسة تحليلية نقدية

إعداد الدكتور

هاني سمير أمين جزيرة

قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

كلية أصول الدين بالقاهرة

جامعة الأزهر

آراء المستشرق الألماني: «كارل بروكلمان» عن عصر الخلفاء الراشدين في كتابه: «تاريخ الشعوب الإسلامية» - دراسة تحليلية نقدية

هاني سمير أمين جزيرة

قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، كلية أصول الدين بالقاهرة ، جامعة الأزهر ، مصر.

البريد الإلكتروني: hanygezera.2011@azhar.edu.eg

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى بيان مفهوم الاستشراق، وأهدافه، ودوافعه، كما يهدف إلى تعريف موجز بالمستشرق الألماني كارل بروكلمان، وحياته العلمية، وأهم مؤلفاته، وكذا التعريف المختصر بكتابه: «تاريخ الشعوب الإسلامية»، وأبرز ملامح منهجه فيه، وأهم محتوياته، وعمل دراسة تحليلية نقدية لبعض آراء المستشرق كارل بروكلمان عن عصر الخلفاء الراشدين في كتابه: «تاريخ الشعوب الإسلامية» وذلك لأنها بحاجةٍ ماسَّةٍ للمراجعة، واتبعت في هذا البحث المنهج الاستقرائي التحليلي النقدي الوصفي؛ وذلك بتتبع الأدلة التي تستند إلى الاستقراء بالرجوع إلى الكتب، واستخراج المسائل، وتحليلها والنظر فيها بما يوصل لنقد موضوعي يخدم فكرة هذا البحث، وموضوعه. وتوصل الباحث من خلال هذا البحث إلى أن إن بعض الروايات التي جاء بها بروكلمان، واعتمد عليها ضعيفة وواهية، وهي لا تصمد أمام النقد التاريخي، ومنهج البحث العلمي، وردت في كثير من فصول كتاب بروكلمان تحيزات فاضحة وواضحة ضد العرب والمسلمين تدل على النَّفَس الاستشراقي، والتعصب الديني، وبصيغ مختلفة، مثل: الوحشية، والبربرية، وحب المال، وغيرها. وكان من أبرز التوصيات إقامة مراكز بحثية متخصصة للرد على شبهات المستشرقين قديمًا وحديثًا، وتصحيح الأفكار، وتحصين الأفهام.

الكلمات المفتاحية: المستشرق الألماني، آراء، تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان.

The Views of the German Orientalist "Carl Brockelmann" on the Age of the rightly- guided Caliphs as stated in his Book " History of the Islamic Peoples" An analytical, critical Study

By: Hany Samir Amin Jezera
Department of Dawah and Islamic Culture
Faculty of Osoul El- Deen
Azhar University, Egypt.
Email: hanygezera.2011@azhar.edu.eg

Abstract:
The present research paper aims at defining orientalism, its objectives, and motivations as well as giving a synopsis about the German Orientalist, Carl Brockelmann, his scientific career and his major writings, particularly his book "History of the Islamic Peoples". The paper also highlights the most important constituents of Brockelmann's book and the most prominent features of his approach as applied in this book. In addition, the research paper introduces an analytical, critical study on some of Brockelmann's views on the rightly- guided Caliphs as stated in his book "History of the Islamic Peoples" as they needed to be revised. The research applies the inductive, analytical, critical and descriptive approaches by tracing the evidence relying on induction, referring to their source books, specifying the cases and analyzing them in a way that would bring about a kind of objective criticism which could serve the topic of this research paper. By the end of the paper, the researcher has found out that some of the accounts on which Brockelmann relied were weak, flimsy and would never withstand historical criticism or the scientific approach of research. Moreover, many chapters of Brockelmann's book contained blatant and clear biases against Arabs and Muslims, indicating an orientalist attitude and religious fanaticism, in various forms such as brutality, barbarism, love of money, etc. Finally, the researcher has recommended establishing specialized research centers to refute the ancient and modern allegations of the orientalists, reform ideas and consolidate understanding

Key words: Th German Orientalist, views, History of the Islamic peoples, Carl Brockelmann

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصَّلاة والسَّلام على سيد الخلق وإمام المرسلين سيدنا ومولانا محمد النبي المصطفى الأمين، عليه أفضلُ الصَّلاة، وأَتَمُّ التسليم، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ... ثم أما بعد،

فإنَّه لما توجهت الحملات الصليبية تجاه المشرق العربي الإسلامي، إبّان العصور الوسطى، وجدوا أنفسهم جاهلين بأحواله، غير عارفين بظروفه في أمور كثيرة، إلا ما يراود خواطرهم ويداعب أحلامهم، وما يسمعونه عن سحر الشرق وغناه، لكن بعد مرور ما يقرب من قرنين من الزمان على بداية هذا العدوان الصليبي الغاشم على الشرق (٤٨٩ هـ- ١٠٩٦م - ٦٩٠ هـ- ١٢٩١م)، رجعت فلولهم مدحورة مذعورة خائبة من حيث أتت، وعادت فلول الصليبيين إلى الغرب وهم يضمرون في نفوسهم العودة من جديد إلى الشرق، لكن بعد أن يعالجوا أوجه القصور ويتداركوا الخلل الذي تسبب في فشل هجومهم المعتدي خلال العصور الوسطى، وأبرزه: جهلهم بأحوال هذا الشرق؛ فكان من الطبيعي أن يجعل الاستعمار الغربي للشرق الإسلامي في العصر الحديث طليعة تسبقه وتصحبه من العلماء والشعراء والأدباء والمؤرخين والخبراء، تكون بمثابة تمهيد فكريٍّ ميدانيٍّ في الواقع؛ حيث يهتمون بمعرفة كل ما يتصل بالشرق من شَتَّى النواحي ومختلف الوجوه، وتَمَثَّلَتْ في ظاهرة «الاستشراق»، التي عُنيت بدراسة كل ما يتصل بالشرق، واهتمت بجُلِّ تفاصيله.

كان الغرض الأساسي من هذه الطليعة الاستشراقية هو الوقوف على نقاط القوة لتفاديها؛ حتى لا تُفْسِدَ مخططاتهم، وَتُفْشِل أطماعهم، وتُذْهِب مساعيهم أدراج الرياح، ومحاولة الالتفاف عليها وإضعافها، والوقوف كذلك في المقابل على جوانب الضعف لاستغلالها، وتعميقها، وترسيخها؛

بُغْيَةَ الإفادة منها لأقصى درجة مُمْكِنَة، على سبيل المثال من جوانب الضعف: محاولة تعميق الخلاف بين الطوائف الإسلامية والمذاهب المختلفة في الشرق على طريقة المبدأ الاستعماري الشهير: «فَرِّق تَسُد»، وقد كانت الكنيسة البابوية في الغرب هي الدافع لانطلاق الحملات الصليبية نحو الشرق في العصور الوسطى؛ فالاستشراق يُعَدُّ طليعةً للاستعمار، وأداةً طَيِّعَةً في يده للسيطرة على الشرق وإخضاعه، ونهب ثرواته وسلب خيراته، ومحاولة القضاء على ثقافته، وفكره، وحضارته، وكل مقومات قوته وتميزه.

إن المستشرقين يدرسون لغة الشرق، وثقافته، وأديانه، ويبحثون في مسائله وموضوعاته وقضاياه؛ من أجل فهم بواعثه، وتفسير تصرفاته، والتنبؤ بمستقبله، وقد ظهر بالاستقراء أنَّ كتابات المستشرقين منها الموضوعي النزيه، ومنها غير الموضوعي المُغْرِض، الذي يهدف إلى الطعن والتشويه، والتنقيص والازدراء والاحتقار، فكثير من المستشرقين كان يَعْمَدُ إلى تصوير رسول الإسلام -محمد ﷺ- تصويرًا سيئًا، ويرسم له صورة مُنَفِّرَة، ويُصَوِّرون دين الإسلام على أنه دين بدائي، ومنتحل، وعدواني، وهمجي، وبربري، ويتسم بالقسوة والغلظة والوحشية، وجُلُّ بحوث المستشرقين ومؤلفاتهم- والتي تُعَدُّ بالآلاف- تعمل على تركيز الصورة السابقة وتكريسها في ذهن القارئ الغربي، ولقد نجحوا في ذلك نجاحًا كبيرًا حتى أصبح كُرْهُ الإسلام والمسلمين والحقد عليهم شيئًا مركوزًا في نفسية الشخصية الأوروبية.

وعلى الجانب الآخر، نجد بعض المستشرقين المنصفين، الذين يقولون كلمة الحق عن الإسلام، ورسوله- ﷺ- وحضارته، لكن أصواتهم تتلاشى تمامًا وسط الركام الهائل والكم الكثير من الحقد والكراهية للإسلام والمسلمين، إنه ليس من الإنصاف أن نَصِفَ كُلَّ المستشرقين بالتعصب ضِدَّ الإسلام والمسلمين، ولا يصح أن نَجْحَدَ فضل المستشرقين على اختلاف اتجاهاتهم ومشاربهم في الكشف عن كثيرٍ من كنوزِ الحضارة الإسلامية، وتحقيقهم لكثيرٍ من

المخطوطات العربية والإسلامية، وإخراجها في ثوبٍ جديدٍ قشيبٍ، فَكُلُّ جهدٍ يُذْكَرُ يُشْكَر؛ لأننا قومٌ تعلمنا من ديننا ألا نجحد فضل صاحب الفضل، ولا ننكر سعي صاحب جهد وعطاء.

أهمية الموضوع:

تتجلى أهمية هذا البحث من خلال الحديث عن مستشرق كبير له مؤلفات تربو عن خمس مئة مُؤَلَّف، وله آراء أصاب فيها، وآراء أبعد فيها النجعة، وجازف مجازفات لا تليق بمكانة عالمٍ كبيرٍ مثله، فضلًا عن التعرض لبعض آرائه في حقبة تاريخية مُعَيَّنَة، ووضعها في ميزان التحليل والنقد قدر الطاقة.

مشكلة البحث:

تتجلى مشكلة هذا البحث من خلال طرح التساؤلات الآتية:

١ – ما مفهوم الاستشراق؟ وما أهدافه؟ وما دوافعه؟

٢ – من هو كارل بروكلمان؟ وماذا عن حياته العلمية؟ وما أهم مؤلفاته؟

٣– ماذا عن كتاب «تاريخ الشعوب الإسلامية»؟ وما ملامح منهجه فيه؟ وما أهم محتوياته؟

٤ – هل هناك آراء للمستشرق كارل بروكلمان عن عصر الخلفاء الراشدين في كتابه: «تاريخ الشعوب الإسلامية» تحتاج للنقد؟

هدف البحث:

يهدف هذا البحث إلى بيان مفهوم الاستشراق، وأهدافه، ودوافعه، كما يهدف إلى تعريف موجز بالمستشرق الألماني كارل بروكلمان، وحياته العلمية، وأهم مؤلفاته، وكذا التعريف المختصر بكتابه: «تاريخ الشعوب الإسلامية»، وأبرز ملامح منهجه فيه، وأهم محتوياته، وعمل دراسة تحليلية نقدية لبعض آراء المستشرق كارل بروكلمان عن عصر الخلفاء الراشدين في كتابه: «تاريخ الشعوب الإسلامية» وذلك لأنها بحاجةٍ ماسَّةٍ للمراجعة.

الدراسات السابقة:

هناك دراسات كثيرة كُتِبَتْ في الاستشراق عمومًا، وهناك كتابات تَرُدُّ على كارل بروكلمان بشكل مُسْتَقِل، ومنها ما يَرُدُّ على آرائه وآراء غيره من المستشرقين، وأذكر طرفًا من هذه الكتابات:

١- «كارل بروكلمان في الميزان»، أ.د شوقي أبو خليل، دمشق: دار الفكر، ط: ١، عام: ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٧م.

٢- «كارل بروكلمان، وكتابه: «تاريخ الشعوب الإسلامية»، د. محمد كريم الجميلي، ود. نوري عزيز أمين، بحث منشور بحولية: الجامعة العراقية.

٣- «افتراءات فيليب حتى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي»، أ.د عبد الكريم علي باز، السعودية، ط: ١، عام: ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣م.

٤- «موقف المستشرقين من الصحابة.. عرض ونقد في ضوء عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة»، د. سعد عبد الله سعد الماجد، السعودية، عام: ١٤٢٧ هـ ... وغير ذلك من البحوث والدراسات.

منهج البحث:

اتبعت في هذا البحث المنهج الاستقرائي التحليلي النقدي الوصفي؛ وذلك بتتبع الأدلة التي تستند إلى الاستقراء بالرجوع إلى الكتب، واستخراج المسائل، وتحليلها والنظر فيها بما يوصل لنقد موضوعي يخدم فكرة هذا البحث، وموضوعه.

خطة البحث:

اشتمل هذا البحث على مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهارس.

أما المقدمة فقد اشتملت على أهمية البحث، ومشكلته وهدفه، والدراسات السابقة، ومنهجه، وخطته.

وأما المبحث الأول فجاء بعنوان: الاستشراق: تعريفه، وأهدافه، ودوافعه.

وتحته مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الاستشراق ومفهومه.

المطلب الثاني: أهداف الاستشراق، ودوافعه.

وأما المبحث الثاني فجاء بعنوان: التعريف بالمستشرق كارل بروكلمان، وكتابه: «تاريخ الشعوب الإسلامية».

وتحته مطلبان:

المطلب الأول: ترجمة موجزة للمستشرق الألماني كارل بروكلمان.

المطلب الثاني: تعريف موجز بكتاب: «تاريخ الشعوب الإسلامية».

وأما المبحث الثالث فجاء بعنوان: تحليل نقدي لبعض آراء المستشرق كارل بروكلمان عن عصر الخلفاء الراشدين في كتابه: «تاريخ الشعوب الإسلامية».

وتحته عشرة مطالب:

المطلب الأول: زعم بروكلمان خضوع الأنصار لسلطان المهاجرين؛ لكونهم الأغلبية.

المطلب الثاني: زعم بروكلمان أن المسلمين العرب كانوا غزاة قساة مخربين.

المطلب الثالث: زعم بروكلمان أن أبا بكر الصديق لم يكن يحالفه التوفيق على الساحة الدولية.

المطلب الرابع: زعم بروكلمان أن الحسن بن علي آثر مفاوضة معاوية، وتنازل عن حقه في الخلافة مقابل المال.

المطلب الخامس: زعم بروكلمان أن الجهاد في عهد الخلافة الراشدة كان لجلب المال وتحقيق الغنى، لا نشر العقيدة والإسلام.

المطلب السادس: زعم بروكلمان أن الإسلام في عهد الخلافة الراشدة انتشر بحد السيف.

المطلب السابع: زعم بروكلمان أن الردة حصلت للتخلص من سلطة حكومة المدينة غير المريحة.

المطلب الثامن: زعم بروكلمان أن خالد بن الوليد قتل مالك بن نويرة بسبب أنه أُعْجِبَ بزوجته.

المطلب التاسع: زعم بروكلمان أن عثمان بن عفان كان ناقص الكفاءة الشخصية.

المطلب العاشر: زعم بروكلمان أن جمع القرآن حصل في عهد عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-.

خاتمة البحث، وتشتمل على أهم النتائج، وأبرز التوصيات.

الفهارس: وتتضمن فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

والله تعالى وحده هو المسؤول أن يُوَفِّقَ ويُسَدِّدَ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه، وهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير.

الباحث

المبحث الأول

الاستشراق: تعريفه، وأهدافه، ودوافعه

المطلب الأول: تعريف الاستشراق ومفهومه.

اختلف الباحثون في إيجاد تعريف مُوَحَّد للاستشراق، رغم أن هذا الاختلاف شكلي وجزئي، وليس حقيقيًّا أو كليًّا، فإن كل من عُنِيَ بتعريف الاستشراق يتفقون فيما بينهم على عناصر مشتركة للاستشراق والمستشرقين، ويعود ذلك إلى تصور كل واحد منهم لحقيقة الاستشراق وأهدافه، لكن يحسن بي إذا أردت أن أُعَرِّفَ هذا المصطلح أن أذكر تعريفات المستشرقين أنفسهم، وفي هذا الصدد يقول المستشرق (رودي بارت)[١]: «الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصَّة، وأقرب شيء إليه إذن أن نفكر في الاسم الذي أطلق عليه، كلمة استشراق مشتقة من كلمة: «شرق»، وكلمة «شرق» تعني: مشرق الشمس، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق، أو علم العالم الشرقي»[٢]، بينما يعتمد المستشرق الإنجليزي (آربري)[٣] تعريف «قاموس أكسفورد» الذي عَرَّفَ المستشرق بأنه

---

(١) «رودولف رودي بارت»: ولد في جنوب ألمانيا عام ١٩٠١م. نشأ في عائلة مسيحية شديدة التديُّن، وهو ما دفعه أولًا لدارسة اللاهوت البروتستانتي في جامعة توبنجن عام ١٩٢٠م، وحصل على الدكتوراة عام (١٩٢٤م)، عمل في التدريس في جامعة روبريخت، عين أستاذًا للغة العربية والدراسات الإسلامية، لم يأل جهدا في تعريف الأوربيين بحقيقة الإسلام من أبرز أعماله « تاريخ حضارات العالم»، و«محمد والقرآن»، و«القرآن تعليق وفهرست» كذلك ترجم القرآن إلى اللغة الألمانية، وتعد من أفضل الترجمات، توفي (١٩٨٣م). ينظر: «معجم أسماء المستشرقين» د: يحيى مراد، (ص: ٦٧٨)، بدون.

(٢) ينظر: «الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية. . (المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه)»، رودي بارت، (ص: ١١)، ترجمة: مصطفى ماهر، ط: القاهرة: دار الكتاب العربي. دون.

(٣) أ.ج آربري ولد (١٩٠٥م)، تعلم في مدرسة اللغات الشرقية في برتسماوث في كمبريدج، وعين أستاذا للغة الفارسية في مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية، يتقن اللغة العربية وينشئ فيها مصنفات متنوعة، من آثاره: كتاب =

«مَنْ تَبَحَّرَ في لغات الشرق، وآدابه»[١].

ولو انتقلنا إلى العرب والمسلمين الذين تناولوا هذا المصطلح فإننا نجد أنَّ إدوارد سعيد عَرَّفَ الاستشراق بتعريفات عدة؛ منها أنه: «أسلوب في التفكير مَبْنِيٌّ على تميّزٍ متعلق بوجود المعرفة بين «الشرق» (معظم الوقت) وبين الغرب»[٢]، ويقول في موضع آخر: «إنّ الاستشراق: نوع من الإسقاط الغربي على الشرق، وإرادة حكم الغرب للشرق»[٣]، وقريب من هذا فإنه عَرَّفَهُ في موضع ثالث بقوله: «بأنه أسلوب غربي للهيمنة على الشرق، وإعادة صياغته وتشكيله، وممارسة السلطة عليه»[٤].

كما ذكر الأستاذ أحمد عبد الحميد غراب تعريفات كثيرة للاستشراق من الغربيين وغيرهم، وقسّمها إلى قسمين: عام وخاص؛ أما التعريف العام: فهو أن الاستشراق أسلوب فكري غربي (أي: منهج غربي في رؤية الأشياء، والتعامل معها) يقوم على أن هناك اختلافًا جذريًّا في الوجود والمعرفة بين الغرب والشرق، وأن الأول يَتَمَيَّزُ بالتفوق العنصري والثقافي على الثاني. وأما التعريف الخاص: فهو عبارة عن دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون من الدول الاستعمارية للشرق بشَتَّى جوانبِهِ؛ تاريخه، وثقافاته، وأديانه، ولغاته، ونظمه الاجتماعية، والسياسية، وثرواته، وإمكاناته، من منطلق التفوق العنصري والثقافي على الشرق، بهدف السيطرة عليه لمصلحة الغرب، وتسويغ هذه السيطرة

التعرف للكلاباذي ، وكتاب المواقف ويليه كتاب المخاطبات للنفري ، تراث الإسلام بمعاونة غيره ، وله تراجم منها ترجمة: كتاب التوهم للمحاسبي . ينظر: «معجم أسماء المستشرقين» ، (ص: ٣٤) .

(١) ينظر: «المستشرقون البريطانيون» ، أ . ج آربري ولد ، (ص: ٨) تعريب: محمد الدسوقي النويهي ، ط: وليم كولينز ، لندن: ١٩٤٦م .

(٢) «الاستشراق» إدوارد سعيد ، (ص: ٩٠)) ، ترجمة كمال أبو ديب ، ط: مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، ط: الثامنة ٢٠١٠م .

(٣) المرجع نفسه: (ص: ٩٢) .

(٤) «الاستشراق» إدوارد سعيد ، (ص: ٩٣) .

بدراسات وبحوث ونظريات تتظاهر بالعلمية والموضوعية[١].

وخلص غراب إلى تعريف أكثر شمولية من التعريفات السابقة فقال: «إن الاستشراق دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون من أهل الكتاب للإسلام والمسلمين من شَتَّى الجوانب: عقيدة، وثقافة، وشريعة، وتاريخ، ونظم، وثروات، وإمكانات؛ بهدف تشويه الإسلام، ومحاولة تشكيك المسلمين فيه، وتضليلهم عنه، وفرض التبعية للغرب عليهم، ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تَدَّعِي العلمية والموضوعية، وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي»[٢].

واعتبره الدكتور فالح الصغير بأنه عبارة عن اتجاه فكري غربي يقوم بدراسة حضارة الأمم من جوانبها الثقافية، والفكرية، والدينية، والاقتصادية، والسياسية كافَّةً، لغرض التأثير فيها[٣].

مفهوم الاستشراق.

بنظرة أوسع ورؤية أشمل لمفهوم الاستشراق يحدثنا الدكتور مازن مطبقاني قائلًا: «إنَّه كل ما يصدر عن الغربيين من أوروبيين (شرقيين وغربيين بما في ذلك السوفييت) وأمريكيين من دراسات أكاديمية (جامعية) تتناول قضايا الإسلام والمسلمين في العقيدة، وفي الشريعة، وفي الاجتماع، وفي السياسة، أو الفكر، أو الفن، كما يلحق بالاستشراق كل ما تَبُثُّهُ وسائل الإعلام الغربية؛ سواء بلغاتهم، أو باللغة العربية، من إذاعات، أو تلفاز، أو أفلام سينمائية أو رسوم متحركة، أو قنوات فضائية، أو ما

(١) ينظر: «رؤية إسلامية للاستشراق» أحمد عبد الحميد غراب، (ص: ٧_٨) / ط: مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الرياض: ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨م.

(٢) ينظر: «المرجع السابق»، (ص: ٩).

(٣) ينظر: «الاستشراق وموقفه من السنة النبوية» فالح محمد فالح الصغير، ط: (ص: ٦)، ط: المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، دون.

تَنْشُرُهُ صحفُهُم من كتابات تتناول المسلمين وقضاياهم، كما أن من الاستشراق ما يخفى علينا مما يُقَرِّرُهُ الباحثون والسياسيون الغربيون في ندواتهم ومؤتمراتهم العلنية، أو السرية، ويمكننا أن نُلْحِقَ بالاستشراق ما يكتبه المسيحيون العرب من أقباط، ومارونيين، وغيرهم، ممن ينظر إلى الإسلام من خلال المنظار الغربي، ولا بُدَّ أن نُلْحِقَ بالاستشراق ما ينشره الباحثون المسلمون الذين تتلمذوا على أيدي المستشرقين، وتَبَنَّوْا كثيرًا من أفكار المستشرقين، حتى إن بعض هؤلاء التلاميذ تَفَوَّقَ على أساتذته في الأساليب والمناهج الاستشراقية، ويدل على ذلك احتفال واحتفاء دور النشر الاستشراقية بإنتاج هؤلاء، ونشره باللغات الأوروبية على أنها بحوث علمية رصينة، أو ما يترجمونه من كتابات بعض العرب والمسلمين إلى اللغات الأوروبية»[1].

ويمكن من خلال الطرح السابق أن أستخلص أمور عدة تكون بمثابة الأسس التي تُبَيِّنُ مفهوم الاستشراق وماهيته:

١- الاستشراق حركة علمية أكاديمية من شرقيين وغربيين وأمريكيين وغيرهم ممن ينظر إلى الإسلام بالمنظار الغربي.

٢- الهدف منه تشويه الإسلام؛ وذلك بالطعن في القرآن الكريم، والسُّنَّة النبوية، وتاريخ المسلمين.

٣- إنشاء مجتمعات تابعة للغرب، فكريًّا، واقتصاديًّا، وسياسيًّا، واجتماعيًّا؛ ليسهل استغلالهم اقتصاديًّا وسياسيًّا وعسكريًّا.

٤- الاستشراق ذو علاقة وطيدة مع الاستعمار؛ فلا استعمار بدون استشراق، ولا استشراق من غير دول استعمارية.

٥- كثير من المستشرقين يفتقدون المنهجية العلمية في طرح آرائهم وأفكارهم؛ فهم يحتجون ببعض

---

(١) ينظر: «الاستشراق» ، مازن مطبقاني ، بحث منشور على موقع مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق . http://medinacenter.org .

الموضوعات من الآثار والروايات الموضوعة التي لا أصل لها في الواقع، وأحيانًا كثيرة لا يعتمدون على شيء وإنما يعتمدون على وساوس شياطينهم لتشكيك الأمة في دينها[١].

والحقيقة لا بد أن ندرك أن الخلاف في تعريف الاستشراق إنما مرده إلى طبيعة عمل المستشرق، وبنظرة فاحصة ناقدة ندرك أن الاستشراق نوع من التحيز الأوروبي تجاه العرق الغربي، ووصفه بأنه العرق الأبيض المتميز، صاحب الريادة والحضارة وما عداه خُلقوا لخدمته؛ ومن ثم فالاستشراق أداة للاستعمار والهيمنة على الشرق؛ فهو جزء من المشروع الاستعماري الاستيطاني الأوربي لفهم طبيعة الشرق والسيطرة عليه سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا ودينيًّا.

المطلب الثاني: أهداف الاستشراق، ودوافعه.

للاستشراق أهداف ودوافع؛ منها ما هو ديني، ومنها ما هو سياسي، ومنها ما هو استعماري، ومنها ما هو اقتصادي، ومنها ما هو علمي، أو ثقافي، وأوردها على النحو الآتي:

أولاً: الدافع الديني.

لعل البعض يسأل لماذا الاستهلال بالدافع الديني؛ فيمكن القول: «إن السبب المباشر والرئيس للاستشراق هو الدين والدين المقابل؛ حيث شكَّل الدين للغرب عامل فشل رئيس على جميع الأصعدة سواء الحكم أو الحرب أو العلم أو الاقتصاد أو المجتمع، بينما في المقابل نجاح الدين الآخر- الإسلام- ونهضته الحضارية؛ مما دعى الغرب لدراسة الإسلام ومعرفة مصدر قوته وقوة تفاعله مع الحياة ومع أتباعه، وظهر جليًّا من خلال احتكاك الغرب بالمسلمين في الأندلس والحروب الصليبية؛ حيث إن أول من بدأ بالاستشراق هم من رجال الدين المسيحي، ثم بعد ذلك تم رعايته من قبل الكنيسة وبشكل رسمي، ودراسة الاستشراق لم تنفك عن اللاهوت إلا في وقت متأخر؛ ولذا نجد أن معظم نتاج المستشرقين تركز حول الإسلام وعقائده، ومصدرية القرآن الكريم والسنة

(١) للاستزادة، يُراجع: «الاستشراق وموقفه من السنة النبوية»، مرجع سابق، (ص: ٦-٩).

النبوية، ومواضيع الفقه فضلًا عن شخصية النبي ﷺ، وكلها أخذت الاهتمام الأكبر من الدوائر الاستشراقية»[١].

والسبب الرئيس في ذلك كما قرره إدوارد سعيد: "أن الإسلام ظل الفكرة أو النمط الذي يتهدد الحضارة الغربية"[٢].

وقد عدّ المستشرق (ولفرد كانتويل سميث)[٣] أن محمدًا ﷺ هو التحدي الحقيقي للحضارة الغربية، الذي واجهته في تاريخها كله، وكم كان حقيقيًّا وخطيرًا، وليس هذا فحسب فقد كان الفكر والفلسفة والثقافة الإسلامية أرفع درجات من مثيلاتها في أوروبا؛ ولهذا شكلت تهديدًا خطيرًا على آراء الكنيسة حول طبيعة المسيح وعبادة الصور المقدسة (الأيقونة)[٤].

من أبرز أهداف الدافع الديني:

١-محاربة الإسلام والبحث عن نقاط ضعف فيه، وإبرازها، والزعم بأنه دين مأخوذ من المسيحية

---

(١) «الاستشراق، أهدافه ، ووسائله: دراسة تطبيقية حول منهج الغربيين في دراسة ابن خلدون» د: محمد فتح الله الزيادي ، (ص: ٣٦) ، ط: دار قتيبة ، ط: الأولى ١٤٢٦ هـ- ١٩٩٨م .

(٢)«الاستشراق» إدوارد سعيد ، (ص: ٢٦٤) ، بتصرف .

(٣) ويلفرد كانتويل سميث .(١٩١٦ – ٢٠٠٠م) ، هو أستاذ في مقارنة الأديان كندي ، كان يعمل مديرا لمركز جامعة هارڤرد لدراسة الديانات في العالم . ، ويعتبر من أكثر الشخصيات تأثيرا في هذا المجال في القرن الماضي . أثار عمله) المعنى ونهاية الدين) (في عام 1962 جدلًا واسعًا لتشككه في صحة مفهوم الدين ، من آثاره العلمية: (نماذج الإيمان حول العالم) و (الإيمان نظرة تاريخية) . ينظر: https://www.marefa.org/%D9%88%D9%8A%D9%84%D9%81%D8%B1

(٤)«الاستشراق والتاريخ الإسلامي» د: فاروق عمر فوزي ، (ص: ٣٢) ، ط: الأهلية للنشر والتوزيع ؛ عمان ، ط: الأولى ١٩٩٨م . بتصرف .

واليهودية، والانتقاص من قيمه والحط من قدر نبيّه ﷺ[١].

٢-حماية المسيحيين من خطره بحجب حقائقه عنهم، وإطلاعهم على ما فيه من نقائص مزعومة، وتحذيرهم من خطر الاستسلام لهذا الدين.

٣-التبشير وتنصير المسلمين[٢].

٤- تشكيك المسلمين بالإسلام وردهم عنه؛ يقول أحد المستشرقين: إذا استطعنا أن نعيد المنشقين (النساطرة) إلى حظيرتنا، وأن نحول التتار إلى المسيحية، فإن جميع المسلمين يمكن أن يقضى عليهم بسهولة، ولكن أشد ما يُثير الخوف هو أن يتحول التتار إلى الإسلام، عندها سيكون العالم المسيحي كله في خطر عظيم[٣].

ولا بد من الإشارة هنا إلى حقيقة علمية وهي أنَّ الاستشراق يلتقي مع التبشير في العمل على إخراج المسلمين من دينهم إلى الإلحاد والشيوعية وغيرها، وقد أصاب هذا الداء كثيرًا من أبناء الأمة الذين صاروا ملاحدة وزنادقة؛ فوزعت سموم الإلحاد على المجتمعات الإسلامية التي لا تزال تعاني منها ومن أتباعها.

ثانيًا: الدافع الاستعماري.

قدم المستشرقون خدمة جليلة للقوى الأوربية المحتلة وسمحوا لأنفسهم أن يستعملوا المعرفة لتخدم السلطة، وبحسب تعبير (زكاري لوكمان): «الاستشراق كمشروع فكري كان مرتبطًا بطرائق

---

(١)«التبشير والاستشراق بين النظرية والتطبيق» أ .د: بكر زكي عوض ، أ .د: عبد القادر سيد عبد الرؤوف ، (ص: ٢١) ، ط:١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م .بتصرف .

(٢)«الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري» أ .د: محمود حمدي زقزوق ، (ص:٧٥) ، ط: دار المعارف- القاهرة ، ١٩٩٧م .

(٣) «رؤية إسلامية للاستشراق» أحمد عبد الحميد غراب (ص: ٢٦- ٢٧) .

مهمة بالاستعمار الأوروبي المعاصر، وإن نوع المعرفة الذي كان الاستشراق كفرع بحثي يميل لإنتاجه، قد استعمل كثيرًا لإضفاء الشرعية على ممارسة السلطة الأوروبية على العالم الإسلامي وتدعيمها»[١]، وهذه العلاقة الوطيدة بين الاحتلال والاستشراق واجهت نقدًا شديدًا في وقت لاحق من داخل الدوائر الاستشراقية وخارجها[٢].

إن المعرفة الاستشراقية خدمت بما لا يدع مجالًا للشك القوة الاستعمارية حتى أصبح الاستشراق من أهم روافد الاستعمار التي لم يكن يستطيع الاستغناء عنها كما ذكر إدوارد سعيد؛ فالتصور عند بلفور وكرومر في بداية القرن العشرين لم يكن ليتوفر لها لولا وجود تراث استشراقي قديم زودهم بتلك المفردات والصور؛ فالاستشراق قد زود الغرب بالمعرفة، وجدير بالملاحظة أن التقدم الضخم في مؤسسات الاستشراق قد تواكب تمامًا مع مرحلة التوسع الأوروبي[٣].

وقد استطاع الاستعمار أن يجند طائفة لخدمته وتحقيق أهدافه، ومن الأمثلة على ذلك المستشرق (كارل هينريش بيكر)[٤]؛ حيث خدمت دراساته الاستعمار الألماني في إفريقيا، ولا يكتفي

---

(١) «تاريخ الاستشراق وسياساته» ، زكاري لوكمان ، (ص: ١٥٩) ، ، ط: دار الشروق- القاهرة ، ط: الأولى ٢٠٠٧م .

(٢) «حول الاستشراق مقدمات أولية» عبد الله عبد الرحمن الوهيبي ، (ص: ٣٨) ، ط: مركز البيان للبحوث والدراسات- الرياض ، ط: الأولى ١٤٣٥ هـ .

(٣) «الاستشراق» إدوارد سعيد ، (ص: ٧٢) ، ترجمة كمال أبو ديب ، ط: مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، ط: الثامنة ٢٠١٠م .

(٤) كارل هينريش بيكر: (١٨٧٦- ١٩٣٣م) هو مستشرق ألماني وسياسي، ولد في أمستردام لأب مصرفي ، درس في جامعات لوزان ، وهايدلبرغ وبرلين ، وسافر إلى إسبانيا والسودان واليونان وتركيا قبل حصوله على الدكتوراة في عام (١٨٩٩) ، له مؤلفات عدة في التاريخ والفلسفة أشهرها (المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن الثامن عشر) وقد ترجم إلى العربية ، وله (إعلان الاستقلال) ، توفي (١٩٣٣م) . ينظر: كارل هينرش بكر(**Wikipedia.org**) .

بذلك كما قال الفيومي: «إن الاستشراق يقوم بهجوم ثقافي بديلًا عن الاستعمار في هجومه المسلح، بهدف التأثير على المجتمع المسلم وإصابته بعوامل التفسخ والانحلال، وإذا كان الاستعمار يستخدم السرعة والمفاجأة، فإن الاستشراق يعتمد الهدوء والتدرج والتهيئة، والإيهام بأن التراث الإسلامي هو أساطير وخرافات»[١]، كما يشرح المستشرقون مبدأ الإسلام في "عدم قبول ولاية الأجنبي" بعدم التعاون مع الشعوب الأخرى، وأما "الجهاد" فهو الاعتداء والغدر، صُبغ بصبغة الدين[٢] مع التركيز على فرقة جماعة المسلمين عرقيًّا ومذهبيًّا وطائفيًّا، وفصل الدين الإسلامي عن واقع الحياة؛ لذا تكونت صلة قوية بين كل من الاستشراق والاستعمار؛ فدليل الاستعمار هو التراث الاستشراقي الذي أسهم في استعمار الغرب للشرق، فكان للمعرفة الاستشراقية قيمتها في ذلك؛ حيث يقول إدوارد سعيد: «إن المعرفة بالشعوب المحكومة هي التي تجعل حكمهم سهلًا ومجديًا، فالمعرفة تمنح مزيدًا من القوة والقوة تتطلب مزيدًا من المعرفة»[٣].

واعتمادًا على ما سبق ذكره يمكنني القول: إنه لا يخفى على كل ذي لب الخدمة الجليلة التي قدمها الاستشراق للاستعمار؛ حيث لعب الاستشراق دورًا مهمًّا في خدمة مشروعات الاستعمار، وذلك من خلال:

١ – المعرفة والفهم والاستيعاب لطبيعة الشرق، وذلك من خلال الدراسات والبحوث التي قاموا بها وقدموها خدمة للاستعمار.

---

(١) «الاستشراق رسالة استعمار غربي» د: محمد إبراهيم الفيومي، (ص: ١٠٩)، ط: دار الفكر العربي – القاهرة ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣م.

(٢) ينظر: «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي» د: محمد البهي، (ص: ٤٧)، ط: مكتبة وهبة – القاهرة، ط: الثانية ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧م.

(٣) «الاستشراق» إدوارد سعيد، (ص:٦٨).

٢- التبرير الأيديولوجي: قدم الاستشراق كذلك تبريرًا أيديولوجيًّا، وذلك من خلال تقديم صورة سلبية للشعوب المستَعْمَرة مما أسهم في تبرير التدخل الاستعماري بحجة تحضير هذه الشعوب.

٣- لعب كذلك الاستشراق دورًا مهمًّا في تشكيل صورة الشرق في الغرب، وذلك بعمل صورة نمطية في المتخيل الغربي كمنطقة متخلفة وشعب همج؛ مما عزز الشعور بتفوق الحضارة الغربية والعنصر الغربي الأبيض.

إذن، كان الاستشراق أداة فاعلة للهيمنة الغربية على الشعوب الشرقية وتبرير المشروع الاستعماري الاستيطاني، ولقد أسهم في خلق علاقة السيطرة والتبعية بين الشرق والغرب.

ثالثًا: الدافع السياسي وأهدافه.

نجد بعض الكُتّاب قد وضع الدافع الاستعماري والسياسي دافعًا واحدًا ولم يفرق بينهما وإن كتب عن الدافع الاستعماري أدخل معه الدافع السياسي أو العكس ولم يتنبَّه لما بينهما من فرق؛ لذا ينبغي التفريق بينهما؛ إذ إن الاستعمار بشكله القديم- الاحتلال العسكري- قد فشل فشلًا ذريعًا، وأضحى نقيض هدفه الرئيس- وهو السيطرة على الموارد الاقتصادية- فأصبح هدرًا لموارد المستَعْمَر واقتصاده؛ لذلك استبدله بالاستعمار السياسي الذي كان الاستشراق فيه مشاركًا فاعلًا، وإذا عدنا إلى التفريق نجده واضحًا عند بعض مفكري المسلمين؛ «حيث لم يكن البُعد السياسي للاستشراق بُعدًا ثانويًّا بل مثّل أمرًا جوهريًّا انعكس في الثقافة والبحث والمؤسسات؛ فقد امتدت الثقافة لتغطي المجالات كافة، ومن هنا برز الاستشراق كإرادة فهم عالم الشرق، والسيطرة عليه؛ ولذلك فإن البعد السياسي الثقافي للاستشراق جعله أقل ارتباطًا بالشرق منه بالعالم الغربي»[(١)].

ولا تزال سياسات الدول الغربية تعتمد بشكل أساسي على رؤية المستشرقين ممن لديهم باع

(١) «الاستشراق قراءة نقدية» صلاح الجابري، (ص: ٢٣)، ط: دار الأوائل للنشر والتوزيع- دمشق، ط: الأولى ٢٠٠٩م.

طويل في رسم السياسة بما يضمن ديمومة مصالح الدول الغربية وفرض السيطرة السياسية على العالم الإسلامي، وتكمن أهمية هذا الاستشراق وخطورته في أن المتزعم له اليوم في العالم الإمبراطورية الأمريكية التي خضعت في حقبة ما من تاريخها إلى استعمار أنجلو فرنسي، وقد خرجت إلى العالم بشعار مناهضة الاستعمار والاستبداد، لكنها استبدلت الاستعمار العسكري بالهيمنة السياسية وسلب الإرادة الذي يتبعه سلب كل شيء من التابع لصالح المتبوع، وبطبيعة الحال ثمة مؤسسات لدراسات الشرق الأوسط ورعاية المصالح المشتركة، شبكة من الخبراء تربط بين شركات الأعمال، والمؤسسات، وشركات النفط، والإرساليات، والمؤسسة العسكرية، والسلك الخارجي، ومجتمع الاستخبارات وبين العالم الجامعي، ثمة منح ومكافآت أخرى، ثمة منظمات، ثمة معاهد ومراكز وكليات ودوائر مكرسة جميعًا لشرعنة السلطة التي تتمتع بها حفنة من الأفكار الأساسية، اللامتغيرة حول الإسلام والشرق والغرب والاحتفاظ بها وتعزيزها(١).

إن هذا التوصيف الدقيق النفيس لم يصدر من مفكر إسلامي، إنما هو من شخصية فكرية ذات جذور مسيحية، ومع ذلك بيّنت وأنصفت، ولم تكتفِ بذلك بل استرسلت بأنه باق ومسيطر ومنتشر وفعّال، بل إنه معقد ومتشابك يضم مستشرقين من الطراز العتيق، ومختصين هامشيين عمدًا، ومختصين بمحاربة العصيان والشغب، وصانعين للسياسة، إضافة إلى أقلية ضئيلة من سماسرة القوة الجامعيين، وعلى كل حال فإن لباب المذهبيات الاستشراقية باق بإلحاح(٢).

أضف إلى ما سبق أنه بعد استقلال أكثر الدول العربية والإسلامية في عصرنا الحاضر، أصبح التمثيل السياسي في كل سفارة من سفارات الدول، وصار لدى كل سفارة من سفارات الدول الغربية سكرتير أو ملحق ثقافي يُحْسِنُ اللغة العربية؛ ليتمكن من الاتصال برجال الفكر، والصحافة،

(١) «الاستشراق» إدوارد سعيد ، (ص: ٣٠٠) .

(٢) ينظر: ترجمة كمال أبو ديب من كتاب «الاستشراق» إدوارد سعيد ، (ص: ٣٠٠) .

والسياسة، ويتعرف على أفكارهم، ويَبُثُّ فيهم من الاتجاهات السياسية ما تريده دولته، وكثيرًا ما كان لهذا الاتصال أثره الخطير في إثارة بعض المشكلات التي تُؤَدِّي إلى التفرقة بين الدول بعضها مع بعض، بحجة توجيه النصح، وتقديم المعونة، بعد أن درسوا- تمامًا- نفسية كثيرين من المسؤولين في تلك البلاد، وعرفوا نواحي الضعف في سياستهم العامَّة، كما عرفوا الاتجاهات الشعبية الخطيرة على مصالحهم واستعمارهم(١).

وبناءً على ما سبق يمكن القول إن الدافع السياسي للاستشراق كان له دور كبير في خدمة المصالح السياسية والاستعمارية للدول الأوروبية الغربية في الشرق، وساهم في إذكاء الصراع الحضاري بين الشرق والغرب، كما أنه في بعض الأحيان، يتم توظيف الصور الاستشراقية لخدمة أهداف سياسية معينة في العلاقات الشرقية-الغربية.

ومن أبرز أهداف هذا الدافع:

١-اعتماد الدول التابعة في أمنها الغذائي على الغرب.

٢-اعتماد دول العالم الإسلامي لحماية نفسها على الغرب.

٣-تشويه صورة الجهاد والمجاهدين؛ إذ إن روح الجهاد من أخطر المخاطر على القوى الاستعمارية، فهي لا تعتمد على قوة مادية بل على عقيدة وإيمان؛ فأي خطر وأي كارثة أن يتصدى نفر من المسلمين اليوم للجهاد؟

٤-استبدال القوانين الوضعية بأحكام الشريعة الإسلامية مع فصل الدين عن الدولة.

٥-الهزيمة النفسية للمسلمين وإصابتهم بالإحباط الشديد في جميع جوانبهم الحياتية مع استحالة الإصلاح.

---

(١) ينظر: «الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم» د: مصطفى السباعي، (الرياض: دار الوراق)، ط١، ١٤٢٠ هـ- ١٩٩٩م (ص: ٢٣-٢٤)، «الاستشراق وموقفه من السنة النبوية»، (ص: ١٧-١٨).

٦-إذكاء روح الاختلاف بين المسلمين مذهبيًّا وطائفيًّا من خلال تزكيتها وإبرازها[١].

رابعًا: الدافع الاقتصادي.

وهو من أهم الدوافع التي ساعدت في تنشيط حركة الاستشراق؛ فبعد أنْ تَعَرَّفَتْ الدول الغربية على المنطقة الإسلامية، وتَعَرَّفَتْ على ثرواتها وخيراتها، أقامت علاقات اقتصادية مباشرة مع العالم الإسلامي، وذلك باستيراد ما تفتقر إليه من المواد الخام الطبيعية، وبأسعار زهيدة وبخسة، حفاظًا على مستوى التصنيع والتقدم التقني عندهم، وإبقاء لمستوى التراجع والتخلف في المناطق العربية والإسلامية، وجعلها منطقة استهلاك فحسب، وبذلك يتم القضاء كُليًّا على الصناعات الوطنية والمحلية، كما أنَّ معظم أصحاب الثروات الكبيرة والأرصدة العالية يودعون أموالهم وأسهمهم في البنوك الغربية، وكل ذلك من شأنه أن يُنْعِشَ تلك البلاد، وفي المقابل يؤثر على اقتصاد البلاد العربية والإسلامية[٢].

ومما لا يخفى على كل دارس للحركة الاستشراقية أن الغرب كان فقيرًا في الأديان والأخلاق والمبادئ، فكذلك هو بالنسبة للموارد الاقتصادية إذا ما قيس بالشرق المتْخَم بالموارد الطبيعية، من أجل ذلك سخر الغرب كل إمكاناته من أجل الحصول على تلك المواد بثمن بخس، واستخدم لذلك "الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق وامتلاك السيادة عليه"[٣]. وكان هناك عدد معتبر من "الأكاديميين خلال عصر الحروب الباردة وبعدها راغبين بل تواقين إلى تقديم مهاراتهم مقابل الحصول على تمويل علني أو سري من الجيش أو وكالات المخابرات لإجراء بحوث لها آثار

(١) ينظر: «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي» ، (ص: ٢٨) .

(٢) ينظر: «الاستشراق وموقفه من السنة النبوية» فالح محمد فالح الصغير ، ط: (ص: ١٨) .

(٣) ينظر: «الاستشراق» إدوارد سعيد ، (ص: ٣٩) .

واضحة على سياسة الولايات المتحدة في العالم الثالث"[١].

ويتضح من هذا أن الدافع قد يكون رسميًّا ومؤسسيًّا بهدف الاستيلاء على الأسواق والمؤسسات المالية والموارد الطبيعية بثمن بخس، وذلك عن طريق الاهتمام بالدراسات الاستشراقية لصالح دول أو مؤسسات.

خامسًا: الدافع العلمي أو الثقافي.

من الدوافع التي دفعت المستشرقين لدراسة الشرق، الدافع العلمي البحت، ودراسة علوم الشرق بدافع الرغبة العلمية لما رأوا من تطور العلوم عند المسلمين مما كان له الأثر فى النهضة العلمية الأوروبية، وكانت من نتيجته الرغبة العلمية الصادقة والثناء على الإسلام ونبيه ﷺ، بل تعدى الأمر إلى دخول بعض المستشرقين الإسلام؛ إذ لا شك أن هناك قلة قليلة من المستشرقين الذين أقبلوا على دراسة العلوم العربية والإسلامية بدافع علمي محض بغية الاستفادة، وهم قليلو الخطأ، إذا ما قيسوا بجمهرة المستشرقين، ومنهم المستشرق النمساوي اليهودي الأصل (ليوبولد فايس)[٢] الشهير بـ(محمد أسد)، كما أن من أهداف الدافع العلمي ما هو مشبوه يقوم على محورية الغرب وتفوقه عرقيًّا ودينيًّا وحضاريًّا وعلميًّا وعكسه فرعية الشرق ودونيته عرقيًّا ودينيًّا وحضاريًّا وعلميًّا، واتخذت البحث العلمي المزعوم ستارًا، وفي ذلك كله يقول سمايلوفتش: «أما الاتجاه العلمي فلا نكاد نصادفه إلا في الحقب الأخيرة، وإن ظهرت بدايته بين الحين والآخر؛ إذ كانت

(١) من أراد أمثلة على هذا فليراجع: «تاريخ الاستشراق وسياساته» زكاري لوكمان، (ص: ٢٣٧).

(٢) المستشرق النمساوي "ليوبولد فايس": (١٣١٨ - ١٤١٢ هـ) (١٩٠٠ - ١٩٩٢ م) ولد في إقليم غاليسيا في بولندا من أبوين يهوديين، وكان اسمه ليوبولد فايس، سافر إلى القدس بدعوة من خاله؛ حيث تعرف على الحركة الصهيونية ورفضها، بدأت من هناك رحلة عشقه للإسلام وعالمه، بدءا باستكشافه كزائر، ثم كصحافي، وانتهت باعتناقه الإسلام بالجزيرة العربية عام ١٩٢٦م وسمي بمحمد أسد بعد إسلامه، توفي (١٩٩٢م)، من آثاره (الطريق إلى مكة)، (أصول الفقه الإسلامي) ينظر: «معجم أسماء المستشرقين» د: يحيى مراد، (ص: ٧٧٥).

الكنيسة تسيطر على الاستشراق وتتعقب عناصره العلمية، وبعد انفصاله عنها سيطرت عليه النزعة الاستعمارية وسخرته لخدمة أهدافها»[١]؛ إذ اتخذت من دراسة تراث الإسلام وحضارته ومخطوطاته وتاريخه وفلسفته وشتى علومه من قبل المستشرقين وبُذلت في ذلك جهود جبارة نتج عنها جهود مضنية في تأليف الكتب والموسوعات، كل ذلك يعضد القول إن ذلك هو أثر علمي يدل دلالة واضحة على فاعلية الحضارة الإسلامية[٢].

كما بدا، تخلص معظم المستشرقين مع بداية القرن التاسع عشر من الآراء القديمة والأفكار المسبقة وغلبة الهوى، عندما أبصروا حضارة سامقة قائمة بذاتها؛ فاجتهدوا في الموضوعية وتنقية الاستشراق من التعصب وحقد القرون الوسطى والميل الاستعماري إلى أن بلغ درجة عالية من النضج الفكري، والحيدة العلمية، والحس النقدي.

وأخيرًا أنبه إلى قول السباعي: "إن هذا النفر القليل من المستشرقين برغم أن أهدافهم علمية خالصة لا يقصد منها إلا البحث والتمحيص، وهم قليلو العدد لكنهم لم يسلموا من الأخطاء بسب جهلهم باللغة تارة، أو بتصورات المجتمع تارة ثانية، مع عدم الأخذ في الاعتبار الفروق الطبيعية والنفسية والزمنية"[٣].

هذه هي بعض الدوافع الرئيسة التي حفزت حركة الاستشراق، وانطوت على أبعاد أكاديمية

---

(١) ينظر: «فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر» ، أحمد سمايلوفتش ، (ص: ٩٦) ، ط: دار الفكر العربي – القاهرة ، ١٤١٨ هـ- ١٩٨٩م .

(٢) ينظر: «الاستشراق في التاريخ: الإشكاليات، الدوافع، التوجهات ، والاهتمامات» د: عبد الجبار ناجي ، (ص: ٣٧- ٣٨) ، ط: المركز الأكاديمي للأبحاث ، ط: الأولى- بيروت ٢٠١٣م .

(٣) ينظر: «الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم» د: مصطفى السباعي، (ص: ٣١- ٣٢) ، ط: المكتب الإسلامي ، دون .

وثقافية وسياسية واستعمارية متداخلة، ويمكن التصدي لهذه الدوافع الاستشراقية، وذلك من خلال التصدي للصورة النمطية التي يصدرونها للغرب وتقديم صورة أكثر دقة وإنسانية عن المجتمعات والثقافات الشرقية، كذلك إقامة حوار مع الغرب على قدم المساواة والاحترام المتبادل.

المبحث الثاني

التعريف بالمستشرق كارل بروكلمان، وكتابه: «تاريخ الشعوب الإسلامية»

المطلب الأول: ترجمة موجزة للمستشرق الألماني كارل بروكلمان (Carl Brockelmann):

كارل بروكلمان مستشرق ألماني وعالم لغوي، ولد في مدينة «روستوك» الألمانية في (١٧/ ٩/ ١٨٦٨م)، من أسرة ميسورة الحال، وكانت أمه خصبة الفكر، وموهوبة روحيًّا، وشجعته على سلوك طريق العلم والمعرفة، والتخصص في الأدب الألماني على وجه الخصوص، قال عنها: منها ورثت ميولي العلمية، وأما أبوه فقد كان يعمل تاجرًا في بعض المستعمرات الألمانية؛ ولذا فقد كان بروكلمان في شبابه غاية أمله أن يعمل فيما وراء البحار كمترجم، أو مُبَشِّر دينيٍّ على ظهر سفينة، لا سِيَّمَا بعد أن ضاقت موارد الأسرة بسبب قله الأعمال آنذاك، وقد قام بجولات بحرية عديدة، فبينما كان في المدرسة الثانوية في الصفوف العليا في «رستوك» بدأت تظهر ميوله إلى الدراسات الشرقية، وأترك المجال لبروكلمان ليتحدث عن نفسه.

«وكانت هناك جمعية للقراءات تجتمع مرتين في الأسبوع، وفي يوم الأربعاء كنا نقرأ مجلة «الجلوبس» (الكرة الأرضية)، وفي يوم السبت نقرأ «مجلة العالم الخارجي»، وهاتان المجلتان كانتا أبرز المجلات الجغرافية، وكان ذلك الوقت هو وقت الاكتشافات الجغرافية العظيمة في آسيا وإفريقيا، ومن هذا الوقت ارتبط خيالي بالمشرق، وكنت أهتم في المقام الأول بما يرد فيهما من أخبار عن اللغات؛ ولهذا فإنني ولا أزال تلميذًا في المدرسة الثانوية وضعت مشروعًا لكتابِ نَحْوٍ للهجة البانتو، التي كان يُتَكَلَّمُ بها في المستعمرة البرتغالية «أنجولا»، وقد احتفظتُ بهذا المُخَطَّط وقتًا طويلًا، وكان أشد أمانيَّ إلحاحًا عليَّ أن أعيش فيما وراء البحار، وشجع عليَّ هذه الأمنية الأحوال السيئة آنذاك في «رستوك»؛ حيث أَدَّت إلى سعي كثيرين من التجار إلى العمل فيما وراء البحار، وكان أَمَلُهُ -آنذاك- أن يَعْمَلَ فيما وراء البحار طبيبًا على ظهر سفينة، أو ترجمانًا، أو مُبَشِّرًا دينيًّا؛ ولهذا

السبب كان يحضر دروس الأستاذ «نرجر»[١] معلم اللغة العربية في مدرسته الثانوية، ويقول إنه أتقن العبرية إلى درجة أنه استطاع أن يُترجِمَ في امتحان العبرية في البكالوريا نَصًّا عِبريًّا عنْ «سفر عاموس» غير مشكول ترجمة تلقائيّة شفويًّا، كذلك بدأ يدرس اللغة الأرامية الكتابية، واللغة السريانية، وهو لا يزال طالبًا في الثانوي»[٢].

جدير بالذكر أن نقول: إنه عُرِفَ عن ألمانيا اتصالها مع الشرق الإسلامي الذي يرجع إلى الحملة الصليبية الثانية بين سنة (١١٤٧م)، و(١١٤٩م)، وعودة حُجَّاجها من الأراضي المُقَدَّسة، ووصفهم لها، ونقلهم عنها شيئًا من حضارتها، وقيام الرهبان بالترجمة عن العربية، وفيهم الألمان[٣].

وفي ربيع عام (١٨٨٨م) انتقل إلى «استراسبورغ» لحضور محاضرات «نولدكه»[٤]، وعنده تَعَلَّمَ الكثير جِدًّا، وكان هو الوحيد في معظم محاضرات «نولدكه»، ودرس بروكلمان اللغة

---

(١) لم أقف له على ترجمة .

(٢) ينظر: «كارل بروكلمان شخصيته ومنجزاته» بقلم المستشرق غونتر كرال (**Gunther Kral**) ، (ص: ٢٦) ، مجلة المعرفة ، الناشر: وزارة الثقافة ، السنة الرابعة ، العدد (٤٨) ، شباط ١٩٦٦م .

(٣) ينظر: «طبقات المستشرقين» ، د: عبد الحميد صالح حمدان ، (ص: ٩٥- ٩٦) ، مكتبة مدبولي- القاهرة ، دون ، وينظر: «موسوعة المستشرقين» د: عبد الرحمن بدوي ، (ص: ٩٨) ، ط: دار العلم للملايين ، بيروت ، ط: الثالثة ١٩٩٣م ، بتصرف . وينظر: «كارل بروكلمان شخصيته ومنجزاته» بقلم المستشرق غونتر كرال (**Gunther Kral**) ، (ص: ٢٦) ، مجلة المعرفة ، الناشر: وزارة الثقافة ، السنة الرابعة ، العدد (٤٨) ، شباط ١٩٦٦م .

(٤) تيودور نولدكه (١٨٣٦- ١٩٣٠م) ولد في مدينة هامبورج ، كان أبوه عميدا للمعهد الثانوي ، وقد انكب نولدكه على دراسة العبرية كما درس الفارسية والتركية والحبشية ، واشتهر بسعة المعرفة ووضوح التفكير ، كما التزم أسلوبا علميا يقوم على المنطق في مصنفاته . ينظر: «المستشرقون» العقيقي ، (٢/ ٧٣٨) ، ط: دار المعارف القاهرة، ط: الثالثة ١٩٦٤م .

السنسكريتية، واللغة الأرمينية مع راهبين أرمنيين، وحصل بروكلمان على الدكتوراة، كما درس اللغة المصرية، قال بروكلمان: وكان يرافقني يهودي غني يُدْعَى «اشبيجلبرج»(١)، حصل بعد ذلك على الدكتوراة من «استراسبورغ»(٢).

وفي سنة (١٨٨٩م- ١٨٩٠م) كَلَّفَهُ «نولدكه» بالقيام بدراسة عن العلاقة بين كتاب: «الكامل في التاريخ»، لابن الأثير، وكتاب: «أخبار الرسل والملوك»، للطبري، ونالت هذه الرسالة جائزة في ربيع (١٨٩٠م)، ومَكَّنَهُ ذلك من طبعها كرسالة للدكتوراة الأولى؛ فطبعت في «استراسبورغ» سنة (١٨٩٠م)، وأمضى بروكلمان صيف (١٨٩٠م) مدرسًا خصوصيًّا في بيت العالم الفسيولوجي «جلوش»(٣) في منزله الريفي في «نويدورف»، وفي أول تشرين الأول أكتوبر (١٨٩٠م) عُيِّنَ مُدَرِّسًا في المدرسة البروتستانتية في «استراسبورغ» أولًا تحت التمرين، وبعد ذلك مدرسًا مساعدًا، وفي الوقت ذاته واصل دراساته العربية، وبدعوةٍ من «نولدكه»، وكان قد قرأ معه في شتاء (١٨٨٨م- ١٨٨٩م) القسم الأول من «ديوان لبيد» الذي نُشِرَ في فيينا، نشر الترجمة الألمانية التي قام بها «أنطوان هوبر»(٤) الذي تُوفِّيَ مُبَكِّرًا، وبعد ذلك نُشِرَ القسم الثاني من هذا الديوان، وما تبقى للبيد من شذرات، وتَرْجَمَهُ إلى الألمانية مُسْتَنِدًا إلى دراسات تمهيدية أعدها «هوبر»، و«هنيرش توربكه»(٥)، وصدر ذلك كله في

---

(١) لم أقف له على ترجمة .

(٢) ينظر: «موسوعة المستشرقين» د: عبد الرحمن بدوي ، (ص: ٩٩) ، بتصرف ، «كارل بروكلمان شخصيته ومنجزاته» ، (ص: ٢٧) . بتصرف .

(٣) لم أقف له على ترجمة .

(٤) لم أقف له على ترجمة .

(٥) هنيرش توربكه ولد (١٨٣٧م) في ميننجن ، تعلم في جامعات أرلنجن وجيتنجن ، وبرلين وهيدلبرج ، تخصص في اللغات الكلاسيكية في عام (١٨٥٩) حصل على الدكتوراة الأولى ، وأمضى بعدها فترة كان فيها مدرسا خصوصيا =

عام (١٨٩١م)[١].

ولكن ما لَبِثَ أن تَبَيَّنَ لبروكلمان أنه لا مستقبل له في هذه المدرسة البروتستانتية؛ لهذا قَرَّرَ أن يُعِدَّ نفسه للانخراط في التدريس الجامعي، ومن أجل هذا انتقل في نوفمبر (١٨٩٢م) إلى «برسلاو»، وحصل على دكتوراة التأهيل للتدريس في ٢٨ يناير (١٨٩٣م) برسالة عنوانها: «عبد الرحمن أبو الفرج ابن الجوزي: «تلقيح فهوم أهل الآثار في مختصر السِّيَر والأخبار» بحث وفقًا لمخطوط «برلين»، وفي تلك الأثناء أيضًا كان بروكلمان مشغولًا بجمع مواد لمعجم سرياني صدر في فبراير: (١٨٩٥م)، وكان (كارل إدوارد سخاو)[٢] قد دعاه للاشتراك في إعداد نشرة نقدية محققة لـ «طبقات ابن سعد»، والسفر إلى «لندن»، و«إسطنبول»، للاطلاع على مخطوطات هذا الكتاب، فسافر بروكلمان في أغسطس (١٨٩٥م) إلى «لندن»، وفي سبتمبر سافر إلى «إسطنبول» حيث أمضى شتاء عام (١٨٩٥م – ١٨٩٦م)، ولم يكتف بأداء المُهِمَّة المنقولة إليه الخاصَّة بـ «طبقات ابن سعد»، بل انتهز الفرصة لنسخ نسخة من «عيون الأخبار»، لابن قتيبة الدينوري، وظهر هذا المجلد بتحقيقه في

في أحد البيوتات ، تعلم اللغات الشرقية ودرس العربية ، وعين أستاذا مساعدا بجامعة هيدلبرج ، من آثاره: (درة الغواص في أوهام الخواص) للحريري صاحب المقامات ، وحقق كتاب (الصبّاغ) ، وكذلك اشترك في تحقيق كتاب (تاريخ الطبري) السلسلة الثانية الجزء الأول ، توفي ١٨٩٠م . «موسوعة المستشرقين» د: عبد الرحمن بدوي (ص: ١٦٠).

(١) ينظر: «كارل بروكلمان» يوهان فوك ، (١/ ١٥٣) ، مقال ضمن كتاب "المستشرقون الألمان وما أسهموا به في الدراسات العربية" ، جمعها وشارك فيها صلاح الدين المنجد ، ط: دار الكتاب الجديد-بيروت- لبنان ١٩٧٨م ، وينظر: «طبقات المستشرقين» ، د: عبد الحميد صالح حمدان ، (ص: ٩٦) ، بتصرف .

(٢) كارل إدوارد سخاو (١٨٤٥- ١٩٣٠م) مستشرق ألماني رحل إلى الشام والعراق ، ونشر كتابا بالألمانية عن رحلاته ، كان عضوا في أكاديمية العلوم البروسية وعضو في الجمعية الآسيوية ، من إنجازاته: أعد فهرسًا للمخطوطات السريانية في مكتبة برلين ، وترجم كتابًا عن تاريخ الهند ، توفي (١٩٣٠م) ينظر: «معجم أسماء المستشرقين» د: يحيى مراد ، (ص: ٧٨٩) .

«برلين» (١٩٠٤م)، وقد طُبِعَ بعناية «أكاديمية برلين» التي تَوَلَّت الإنفاق على الكتاب بكل أجزائه، أما فيما يتصل بنشر «عيون الأخبار»، فقد تَوَلَّى أمره بنفسه، ووجد في «فيمار» ناشرًا مُسْتَعِدًّا لتحمل نفقات الطبع بشرط أن يُقَدِّمَ إليه بروكلمان في الوقت نفسه كتابًا آخر أوفر حَظًّا من الرواج؛ لأن النص العربي لـ «عيون الأخبار» لا يَهُمُّ إلا القليل من المتخصصين في المكتبات العامة، وكان هذا الشرط هو الذي دفع بروكلمان إلى تصنيف كتابه: «تاريخ الأدب العربي»، وقد ظهر النصف الأول من الجزء الأول في سنة (١٨٩٧م)، والنصف الثاني في سنة (١٨٩٨م)، والجزء الثاني في عام: (١٩٠٢م)، ثم أعاد بروكلمان الطبعة الأولى في مجلدين مع توسعات كثيرة، وجعلها متماشية مع طبعة الملحق هذه في «ليدن» (١٩٤٣م – ١٩٤٩م)، وهكذا أصبح الكتاب في وضعه النهائي مُؤَلَّفًا من خمسة مجلدات؛ المجلد الأول والثاني هما الأصل، والمجلدات الثلاثة الباقية هي ملاحق على الأصل[١].

وفي ربيع (١٩٠٣م) دُعِيَ بروكلمان ليكون أستاذ كرسي في جامعة «كينجزبرج»، وبقي في هذا المنصب حتى (١٩١٠م)، وهنا أَلَّفَ كتابه «موجز النحو المقارن للغات السامية»، وفي عام (١٩١٠م) دُعِيَ ليشغل أستاذًا في جامعة «هَالَّة»؛ حيث بَقِيَ فيها إلى سنة (١٩٢٢م)، وفي عام (١٩٢١م) عرض كرسي الدراسات الشرقية في جامعة «بون» على بروكلمان، كما عُرِضَ عليه الكرسي الذي كان يشغله (سخاو)، فَفَضَّلَ كرسي «برلين»؛ لأنه رجا أن يجد في برلين أنسب الظروف والإمكانات لمواصلة عمله، لكن لم تتحقق آماله، ولم يستطع الانتقال للإقامة في «برلين» لمدة يومين في الأسبوع طوال فصلين دراسيين؛ ولهذا تخلى عن منصبه في «برلين» بعد عام من تعيينه، وعاد إلى جامعة «برسلاو»[٢].

وفي صيف (١٩٣٢م) انْتُخِبَ مديرًا لجامعة «برسلاو»، لكنه حدث في أثناء إدارته أن قام

---

(١) ينظر: «كارل بروكلمان» يوهان فوك ، (١/ ١٥٤) ، «المستشرقون» ، نجيب العقيقي ، (٢/ ٧٧٨) .

(٢)ينظر «كارل بروكلمان شخصيته ومنجزاته» ، (ص: ٢٨) . بتصرف .

الطلاب النازيون بمظاهرات ضد تعيين أحد الأساتذة اليهود؛ مِمَّا أَدَّى إلى إغلاق الجامعة لمدة ثلاثة أيام، ولما حاول بروكلمان الدفاع عن حرية الجامعة في اختيار الأساتذة أَيًّا كانت ديانتهم، اضطر إلى الاستقالة من منصبه مديرًا للجامعة في مارس (١٩٣٣م) بعد أن استولى النازيون على السلطة في يناير (١٩٣٣م)، لكنه احتفظ بكرسي الأستاذية في الجامعة.

وفي خريف (١٩٣٥م) تقاعد وانتقل في ربيع (١٩٣٧م) إلى مدينه «هَالَّة»؛ رغبة في الاستفادة من مكتبة الجمعية الشرقية الألمانية[١].

كان على بروكلمان في عام (١٩٤٥م) بوصفه متقاعدًا من جامعة «برسلاو» أن يعمل مؤقتًا في منصب محافظ لمكتبة «الجمعية الشرقية الألمانية»، فَصَرَفَ كُلَّ هَمِّهِ لإعادة تنظيمها، واستعادة ما نُقِلَ من كتبها ومخطوطاتها، وفي صيف (١٩٤٧م) عُيِّنَ أستاذًا شَرَفِيًّا، وألقى دروسًا ومحاضرات- بناء على رغبته- في «التركيات»، فَدَرَّسَ لطلابه اللغة التركية الحديثة، وقرأ معهم كتب التاريخ العثماني القديمة، وفَسَّرَ وثائق تركيا، وألقى محاضرات في تاريخ الدولة العثمانية، كما ألقى في الوقت ذاته دروسًا في اللغات السريانية، والأكدية، والآشورية، والبابلية، والحبشية، والقبطية، وشرح مصادر مكتوبة بالسريانية تَتَعَلَّقُ بتاريخ الإسلام، ونصوصًا يهودية آرامية مع دروس في الفارسية الحديثة، والفارسية الوسطى، والأرمنية، وهكذا كان بروكلمان يتقن (١١) لغة شرقية؛ هي العربية، والسريانية، والعبرية، والآشورية، والبابلية، والحبشية، والفارسية، والفارسية الوسطى، والفارسية الحديثة، والأرمنية، والتركية، والقبطية إلى جانب إتقانه لليونانية، واللاتينية، والفرنسية، والإيطالية، والإنجليزية، والإسبانية[٢].

---

(١)ينظر: موسوعة «المستشرقين» د: عبد الرحمن بدوي ، (ص: ١٠٠) ، بتصرف ، وينظر: «كارل بروكلمان» يوهان فوك ، (١/ ١٥٤) .

(٢) ينظر: «طبقات المستشرقين»، د: عبد الحميد صالح حمدان ، (ص: ٩٧) ، بتصرف .

وفي صيف (١٩٥٣م) تقاعد بروكلمان للمرة الثانية، لكنه واصل التدريس مع ذلك، وفي أثناء قُداس ليلة عيد الميلاد في ديسمبر (١٩٥٤م) أُصِيبَ كارل بروكلمان بنزلة برد كانت عاقبتها وخيمة على صحته، بيد أنه استمر في عمله مستعينًا بأحد طلابه، فاستطاع أن ينتهي من كتابه الأخير في «نظم اللغة العبرية»، وقد ظهر هذا الكتاب بعد وفاته التي كانت في السادس من مايو (١٩٥٦م)، وانتخب بروكلمان في مجامع «برلين»، و«لبزيج»، و«بودابست»، و«بون»، و«ليبزيج»، و«دمشق»، وجمعيات آسيوية كثيرة.

وفي الختام: لم تسعفنا المصادر التي ترجمت لبروكلمان شيئًا عن أسرته سوى إشارة صغيرة عن زوجته التي كانت تساعده في الكتابة أواخر حياته، وكذلك لم تذكر المصادر له من الأبناء سوى ابنه الذي اشترك في معركه «استالجراد»[١]، وقد تَمَّ تسليم الجيش الألماني للجيش الروسي في شهر شباط من عام (١٩٤٣م)، وعُدَّ من المفقودين، ولكنه عاد من الأسر من روسيا بعد فترة طويلة من القلق، وعلى ما يبدو فإن بروكلمان كان يحتفظ له بما كان في قلبه، وربما كان ابنه الأكبر، أو الوحيد؛ ولذلك كتب له ترجمة ذاتية عن حياته الخاصة والعامة؛ اعتزازًا به، ومحبةً له، وقد كتب له بركلمان تلك الترجمة في منزله في مدينة «هالَّة»، وفرغ منها في ١٤ سبتمبر من سنة (١٩٤٠م)، أي قبل ثلاثة أيام من بلوغ سن التاسعة والسبعين[٢].

---

(١) معركة ستالينگراد دارت بين القوات السوفييتية والقوات الألمانية بسبب غزو الأخيرة لستالينگراد في (٢١ أغسطس ١٤٤٢م) ، وهي من أكثر المعارك أهمية في التاريخ ؛ حيث كانت نقطة تحول في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥م) . وخلال صراع دام خمسة أشهر (٢١ أغسطس ١٩٤٢ – ٢ فبراير ١٩٤٣م) ، حالت القوات السوفييتية بين القوات الألمانية الكبيرة وبين الاستيلاء على ستالينگراد (حاليا ڤولكوكراد) . ينظر:
ttps://www.marefa.org/%D9%85%D8%B9%D8%B1%D9%83%D8%A9_%D8%B3%D8%AA%D8%A7%D9%84%D9%8A%D9%86

(٢) ينظر: «كارل بروكلمان في الميزان» د: شـــوقي أبو خليل، (ص: ١٣) ، ط: دار الفكر ، دمشـــق ، ط: الأولى: ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٧م .

أهم مؤلفات بروكلمان:

أما إنجازاته العلمية والأدبية، فهي أكثر من أن تستوعب في مثل هذا البحث؛ ولذلك اعتبر أكبر باحث بالجامعات الأوربية في النصف الأول من القرن العشرين في مجال الدراسات السامية، وتاريخ التراث العربي؛ حيث عاش حياة عامرة بالبحث والدراسة العلمية، وحياة حافلة بالتأليف والتصنيف الأكاديمي، وظل يؤلف أكثر من (٦٦) عامًا وبسبب تمتعه بالذاكرة القوية والممتازة والجلد والتوجيه العلمي، أنجز في حياته وحيدًا ما تنوء بإنجازه العصبة القوية، حتى بلغ عدد مؤلفاته (٥٥٥) مؤلفًا بين تأليف، أو تحقيق، أو مقالة، أو بحث، أو سيرةٍ شخصيةٍ، ومن أهم هذه المؤلفات:

١ - «العلاقة بين كتاب «الكامل في التاريخ»، لابن الأثير، وكتاب: «أخبار الرسل والملوك»، للطبري، رسالة الدكتوراة.

٢ - «ديوان لبيد»، مترجم عن طبعة فيينا، ومزود بحواشٍ، والقسم الثاني من «ديوان لبيد» المنشور وفقًا للدكتور «هوبر»، طُبِعَ في «ليدن»، عام (١٨٩١م).

٣- كتاب: «تلقيح فهوم أهل الآثار في مختصر السير والأخبار»، تأليف: عبد الرحمن أبي الفرج ابن الجوزي، رسالة الأستاذية، جامعة «برسلاو»، عام (١٨٩٣م).

٤ - «المعجم السرياني»، طُبِعَ في برلين سنة (١٨٩٥م).

٥ - كتاب: «الوفاء في فضائل المصطفى»، عن مخطوط «ليدن»، طُبِعَ فيه «ليبتسك»، عام (١٨٩٥م).

٦ - «تاريخ الآداب العربية»، طُبِعَ المجلد الأول في «فيمار»، عام (١٨٩٨م).

٧- «رسالة في لحن العامة»، للكسائي، سنة (١٨٩٨م).

٨- «مقالة في مؤلفات ابن المقفع المختصة بعلم البيان والبلاغة»، سنة (١٨٩٩م).

٩- كتاب: «عيون الأخبار»، تأليف: ابن قتيبة الدينوري، طُبِعَ الجزء الأول في «برلين»، سنة (١٩٠٠م).

١٠- «مختصر تاريخ الآداب العربية»، طُبِعَ في «ليبتسك»، عام (١٩٠١م).

١١- «بيان عربي في جزيرة مالطة»، عام (١٩٠١م).

١٢- «تاريخ الآداب العربية»، طُبِعَ المجلد الثاني في «فيمار»، عام (١٩٠٢م).

١٣- كتاب: «عيون الأخبار»، لابن قتيبة، طُبِعَ الجزء الثاني في «استراسبورغ»، سنة (١٩٠٣م).

١٤- «فهرست المخطوطات العربية، والفارسية، والتركية، والعبرانية الموجودة في «مكتبة برسلاو البلدية»، طبع في «برسلاو»، سنة (١٩٠٣م).

١٥- كتاب: «الطبقات الكبرى»، لابن سعد، المجلد الثامن الخاص بسير النساء، «ليدن»، سنة (١٩٠٤م).

١٦- «الآجرومية العربية، لسوتسين» الطبعة الخامسة المُصَحَّحَة والمُحَقَّقَة في «برلين» (١٩٠٤م).

١٧- «في كتاب: «طبقات الشعراء»، لمحمد بن سلام الجمحي»، مقالة في كتاب: «الدراسات الشرقية»، المُقَدمة إلى نولدكه، عام (١٩٠٥م).

١٨- «تاريخ الآداب النصرانية في الشرق.. الآداب السريانية والعربية النصرانية»، طُبِعَ في «ليبتسك»، عام (١٩٠٧م).

١٩- كتاب: «عيون الأخبار»، لابن قتيبة، طُبِعَ الجزء الثالث في «استراسبورغ»، سنة (١٩٠٦م).

٢٠- كتاب: «المفصل في علم النحو والصرف المقارن للغات السامية»، المجلد الأول، علم الأصوات والصرف، «برلين»، (١٩٠٧م).

٢١- كتاب: «عيون الأخبار»، لابن قتيبة، طُبِعَ الجزء الرابع في «استراسبورغ»، سنة (١٩٠٨م).

٢٢- فهرست المخطوطات الشرقية من دون العبرانية الموجودة في مكتبة همبرج البلدية القسم الأول المخطوطات العربية والفارسية والتركية والقبطية والسريانية والحبشية- همبرج ١٩٠٨ م.

٢٣- مختصر كتاب علم النحو والصرف المقرر للغات السامية- برلين ١٩٠٨ م.

٢٤- «الآجرومية العربية، لسوتسين» الطبعة السادسة المُنَقَّحة في «برلين» (١٩٠٩م).

٢٥- «ملاحظات شتى عن تاريخ الآداب العربية: مجموعة دراسات مقدمة للأستاذ ديرنبرج» (١٩٠٩م).

٢٦- «تاريخ الإسلام من البدء إلى الوقت الحاضر: دراسة في كتاب تاريخ العالم المنشور لبيفلوجك هارتونج»

المجلد الثالث من صفحة ١٣١ إلى صفحة ٣١٩ برلين ١٩١٠ م.

٢٧- كتاب: «المفصل في علم النحو والصرف المقارن للغات السامية»، المجلد الثاني، علم النحو، طُبِعَ في «برلين»، من سنة (١٩١١م)، إلى سنة (١٩١٣م).

٢٨- «تصحيحات كتاب «عيون الأخبار»، تأليف: أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المطبوع في مطبعة «دار الكتب المصرية»، سنة (١٣٤٣م- ١٩٤٩م)، «مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق»، مجلد: ١٤، (ص: ١١١ إلى ص: ١٢٦)، سنة (١٩٣٦م).

٢٩- «تاريخ الآداب العربية»، الذيل الأول، «ليدن»، سنة (١٩٣٧م).

٣٠- «تاريخ الآداب العربية»، الذيل الثاني، «ليدن»، سنة (١٩٣٨م).

٣١- «تاريخ الشعوب والدول الإسلامية»، «منخن»، و«برلين»، سنة (١٩٣٩م).

٣٤- «تاريخ الآداب العربية»، الذيل الثالث، «ليبيا»، سنة (١٩٤٢م).

وشارك كارل بروكلمان في «دائرة المعارف الإسلامية بمقالات كثيرة في المجلد الأول وفي المجلد الثاني، ومعظمها تراجم للعلماء، وكذلك في المجلد الثالث، وفي المجلد الرابع معظمها تراجم للشعراء، والأدباء، والعلماء، والمؤرخين، والحكام، والفقهاء، والمحدثين، وغيرهم[١].

---

(١) ينظر: «كارل بروكلمان في الميزان» د: شوقي أبو خليل ، (ص: ١٣ ، وما بعدها) ، ط: دار الفكر ، دمشق ، ط: الأولى: ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م ، ويُنْظَرْ أيضًا: «موسوعة المستشرقين» ، عبد الرحمن بدوي ، (ص: ٥٧ ، وما بعدها)، «المستشرقون» نجيب العقيقي ، (٢/ ٧٧٧ ، وما بعدها) ، وينظر: «كارل بروكلمان» يوهان فوك ، (١/ ١٥٨) .

هذا وقد قال الأستاذ نجيب العقيقي عن بروكلمان: من أعلام المستشرقين الألمان، وأكابر الباحثين الذين عَرَفَتْهم الجامعات الأوروبية، في النصف الأول من القرن العشرين، في مجالات الدراسات السامية، وتاريخ التراث العربي والإسلامي، طارت شهرته في فقه العربية، وقراءتها قراءة فصيحة، وكتابتها كتابة سليمة، وفي التاريخ الإسلامي، وتاريخ الأدب العربي، حتى عُدَّ إمامًا في ذلك كله، انتُخب عضوًا في مجامع «برلين»، و«ليبزيج»، و«بودابست»، و«بون»، و«دمشق»، وجمعيات علمية آسيوية كثيرة، واشتُهر بروكلمان بنشاطه الجَمِّ، وغزارة إنتاجه الذي اتصف بالموضوعية، والعمق، والشمول، والجِدَّة، مما جعله مَرْجِعًا للمصنفين في التاريخ الإسلامي، والأدب العربي؛ إِذْ قَلَّ منهم مَنْ لم يستند إليه، أو يتوكأ عليه في مصنفاته(١).

المطلب الثاني: تعريف موجز بكتاب «تاريخ الشعوب الإسلامية».

ذكرت المصادر أن بروكلمان بَقِيَ لأكثر من (٦٦) عامًا يُؤَلّفُ الكتب دون كَلَلٍ، أو مَلَلٍ بسبب جَلَدِهِ العلميِّ والفكريِّ حتى بلغت مؤلفاته (٥٥٥) مُؤَلَّفًا ما بين تأليفٍ، وتحقيقٍ، وبحوثٍ، ومقالاتٍ، وتقريرٍ، وغيرها، ومما يَبْعَثُ على الدَّهْشَة والإعجاب أنَّ هذا الإنجاز لم يكن في مجال علميٍّ واحدٍ، أو لغةٍ واحدةٍ، وإنما في موضوعات شَتَّى، وبلغات عديدة، واتصف معظمها بالجدية، والعمق، والشمول.

وعُرِفَ بروكلمان بالجد والمثابرة والنشاط التأليفي الغزير، وكان جُلُّ اهتمامه ينصب على دراسة التراث العربي الإسلامي منذ بداية حياته العلمية، وفيما بين فترة: من (١٨٩٥م) إلى (١٩١٤م)، بدأ بالجمع والتعليق على كل ما يتعلق بتاريخ الإسلام ونشرها ضمن كتابه: «تاريخ العالم»، لكنه قَدَّمَ فيه عرضًا موجزًا مختصرًا عن تاريخ الأمة الإسلامية، وبعد أن تجمعت لديه أفكار وإضافات جديدة، عاد مرة أخرى، وذلك بعد (٢٥) عامًا، وتَوَسَّعَ كثيرًا في ذكر تفاصيل كثيرة عن

(١) ينظر: «المستشرقون»، (٢/ ٧٧٧، وما بعدها)، وأيضًا: (٣/ ٤٢٤)، بتصرف.

تاريخ الإسلام منذ العصور القديمة حتى سنة (١٩٣٩م)، وقد أصدر ذلك كله في مجلد كبير سَمَّاهُ: «تاريخ الشعوب الإسلامية»، وهذا الكتاب يُعْطِي صورةً شاملةً لتاريخ الشعوب الإسلامية كلها منذ بداية الإسلام، حتى عام (١٩٣٩م) معتمدًا على «يوليوس فلهاوزن»[١]، و«ليون كايتاني»[٢]، فيما يتعلق بتاريخ الإسلام، والدولة الأموية، والذي تَرْجَمَهُ إلى العربية سنة (١٩٤٩م)، الأستاذان منير بعلبكي، ونبيه فارس،كما تُرْجِمَ إلى التركية، والهولندية، والفرنسية، وتُرْجِمَ إلى الإنجليزية، ونُشِرَ في عام: (١٩٤٧م)، مع فصل عن الحوادث من سنة (١٩٣٩م) إلى سنة (١٩٤٧م)، كَتَبَهُ يهوديٌّ متعصب مُتَمَيِّز يُدْعَى «إم برليمان»[٣] شَوَّهَ فيه القضية الفلسطينية.

وقد شملت الفترة الزمنية التي تناولها الكتاب تاريخ العرب قبل الإسلام، مرورًا بالبعثة النبوية، ثُمَّ صَدْرَ الإسلام، والدولة الأموية، والعباسية، وغيرها من الدول، وصولًا إلى الدولة العثمانية التي أولاها بروكلمان اهتمامًا خاصًّا، بسبب تجاهل المؤرخين لها، فكتب عنها ما يزيد عن (١٥٠) صفحة، اشتملت على تفاصيل كثيرة عن تاريخ الحضارة العثمانية، وانتهى بذكر الإسلام والمسلمين

---

(١) يوليوس فلهاوزن (١٨٤٤-١٩١٨م) ولد بمدينة هاملن ؛ حيث كان أبوه قسيسًا فيها ، اهتم بدراسة التاريخ الإسلامي والأدب والشعر العربي ، كما تعمق في دراسة الأناجيل والتوراة وتاريخ بني إسرائيل . وصفه نولدكه بالعبقرية، كما قام بدراسة اللاهوت لنقد التوراة ، من أشهر أعماله كتاب (مقدمة لتاريخ إسرائيل) ، (المملكة العربية وسقوطها) ، توفي (١٩١٨م) ينظر: «معجم أسماء المستشرقين» د: يحيى مراد (ص: ٧٩٧) .

(٢) ليون كايتاني (١٨٦٩-١٩٢٦) ولد في روما، وتخرج في جامعتها ، وتعلم سبع لغات منها الفارسية والعربية ، وتقلد سفارة إيطاليا في واشنطن ، كانت ثروته تقدر بخمسة ملايين ليرة ذهبية كان ينفق منها على العلم كل سنة عشرة آلاف ، وقد رحل إلى الهند وإيران ومصر وسوريا ولبنان ، وجمع مكتبة شرقية زاخرة بالمخطوطات النفيسة . من آثاره: نمو الشخصية الإسلامية ، انتشار الإسلام وتطور الحضارة ، دراسة التاريخ الشرقي ، توفي عام (١٩٢٦م) . ينظر: «معجم أسماء المستشرقين» د: يحيى مراد (ص: ٨٦٩) .

(٣) لم أقف على ترجمته.

في العصر الحديث، ولم تَمْضِ مدة طويلة حتى نال الكتاب شهرة واسعة في المجتمع الشرقي والغربي على حَدٍّ سواء، وطُبِعَ في مجلد كبير مرات عدة بترجمة نبيه أمين فارس، ومنير بعلبكي في بيروت، وطُبِعَ معه فهرسان يُعَرِّفَان بالمخطوطات العربية في خزانة مكتبة «برسلاو» و«همبورغ».

وقَسَّمَ بروكلمان كتابه هذا إلى خمسة أبواب:

الباب الأول: العرب والإمبراطورية العربية.

الباب الثاني: الإمبراطورية الإسلامية وانحلالها.

الباب الثالث: الأتراك والعثمانيون.

الباب الرابع: الإسلام في القرن التاسع عشر.

الباب الخامس: الدول الإسلامية بعد الحرب العالمية.

وقد اشتمل الباب الأول على تاريخ العرب منذ أقدم العصور حتى سقوط الأمويين.

واشتمل الباب الثاني على الخلافة العباسية، ونشوء الدويلات المستقلة، وتاريخ الإسلام في الأندلس، وشمال إفريقيا، والحروب الصليبية، ودولة المماليك.

وتَضَمَّنَ الباب الثالث التاريخ العثماني حتى مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، والحضارة العثمانية في أوج إمبراطوريتها، والصراع العثماني الفارسي.

وتَضَمَّنَ الباب الرابع الإسلام في القرن التاسع عشر الميلادي، وهو يدرس العلاقات بين الإمبراطورية العثمانية، ومصر، والحياة الفكرية فيهما، وأحوال شمال إفريقيا، والسودان، وإيران، وأفغانستان في ذلك الوقت.

وتَضَمَّنَ الباب الخامس والأخير دراسة في التاريخ الحديث لكل من تركيا، ومصر، وبلاد العرب، وسوريا، ولبنان، وفلسطين، وشرقي الأردن، والعراق، وإيران، وأفغانستان.

والملاحظ أنَّ بروكلمان لم يدخل في تفاصيل وإشكالات صَدْر الإسلام، والدولة الأموية، وقد

كفاه ذلك المؤرخ «فلهاوزن»، والمستشرق «بارتولد»[1] في تاريخ آسيا الوسطى. وبإلقاء نظرة شاملة على الكتاب، نرى أن بروكلمان قد دَوَّنَ في كتابه هذا تدوينًا مُوجزًا ومختصرًا وَفْقَ نظرة استشراقية بحتة، معتمدًا على أفكاره المقتبسة من البيئة الأوروبية، وتحليل الأحداث باعتماده على روايات ضعيفة، لا أصل لها، فضلًا عن استخدامه بعض المصطلحات التي فيها تَجَنٍّ واضحٍ على العرب، وتاريخهم، وحضارتهم، فنراه مَرَّة يُسَمِّي فتوحاتهم بالبربرية، ومَرَّة ينعتهم بالوحشية، وهذا ما لا يليق بمؤرخٍ كبيرٍ بحجمِ بروكلمان.

لقد حكم بروكلمان على تاريخنا وتراثنا من خلال كتابه هذا بالهامشي، والعشوائي، والضعيف منطلقًا من التشكيك، والرفض العشوائي، ومعتمدًا على الروايات الواهية والشاذة التي أسقطها المؤرخون العرب، وعَدُّوهَا من الموضوعات التي لا تصلح لأي قيمة علمية، فراح يطمس ويُضَعِّف، فَقَدَّمَ تاريخًا مُوَسَّعًا للجزئية، ومتغاضيًا عن الكلية، مع تفسيرات عجيبة، فضلًا عن ابتعاده عن مصادر التاريخ الإسلامي الرئيسة، كالطبري، وابن الأثير، والبخاري، وابن سعد، وغيرها، واعتماده على كتب المستشرقين المعاصرين له، والسابقين لعصره، ولا عذر له بذلك مطلقًا؛ لأنه يتقن اللغة العربية قراءةً وكتابةً[2].

---

(١) فاسيلي فلاديميروفتش بارتولد (١٨٦٩- ١٩٣٠م): يعرف كذلك (بفيلهلم بارتولد) هو مستشرق ومؤرخ روسي سوفيتي بارز من أصول ألمانية ، تخصص في الدراسة الشرقية ولا سيما في مجالات تاريخ الحضارة الإسلامية والشعوب التركية . آثاره تربو على أربعمائة ، أشهرها: (تركستان في فترة الغزو المغولي لها) في مجلدين ، (عالم الإسلام) ، (تاريخ دراسة الشرق في أوروبا وروسيا) . «معجم أسماء المستشرقين» د: يحيى مراد، (ص: ٢٠٠).

(٢) ينظر: «لمحات في المكتبة والبحث والمصادر» محمد عجاج الخطيب، (ص: ٢٧٩) ، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت ، ٢٠٠١م ، ويُنْظَر أيضًا مقدمة كتاب: «تاريخ الشعوب الإسلامية» ، تعريب: نبيه أمين فارس ، ومنير البعلبكي ، (ص: ٦) ، ط: دار العلم للملايين- بيروت ، ط: الخامسة ، ١٩٦٨م .

يقول مترجما كتاب: «تاريخ الشعوب الإسلامية»: «ولعلنا لا نعدو جانب الحقيقة إذا قُلْنَا إنَّ أحدًا من المؤرخين، من شرقيين ومستشرقين، لم يَسْبِقْ العَلَّامَة بروكلمان إلى مثل هذا الكتاب الجامع الذي يستغرق بين دفتيه تاريخ العرب والمسلمين منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا؛ فقد عهدنا المؤرخين يستهلون مؤلفاتهم بالجاهلية ليختموها بسقوط بغداد في يد المغول سنة (١٢٥٨م)، أو بالفتح العثماني عام (١٥١٦م)، ومِنْ هنا كان تاريخ العرب والإسلام إبان العصر العثماني بخاصَّة هو الحلقة المفقودة في تلك الكتب جميعًا، وكأننا ببروكلمان قد أدرك هذه الواقعة التي لا مُبَرِّرَ لها عند معظم من عُنُوا بالتاريخ للعرب والمسلمين إلا غموض تلك الحقبة، ووعورة البحث في مجاهلها، فأفرد نحوًا من مئة وخمسين صفحة من كتابه هذا لدراسة التاريخ العثماني، والحضارة العثمانية، ليتم السلسلة بعد بدراسة الإسلام في العصر الحديث» [١].

على أنَّ هذا التاريخ لم يكن وافيًا شاملًا؛ إذ اقتصر المؤلف في كتابه هذا على التأريخ لقلب العالم الإسلامي، دون أطرافه في شبه القارة الهندية، وامتداداتها في جنوب شرقي آسيا، وتُركستان «آسيا الوسطى»، والقوقاز، وإفريقيا الإسلامية، جنوب الصحراء الكبرى، إلا نادرًا[٢].

أما جهد المترجمين والمُراجِع في خدمة النص الُمتَرجَم فهو جهد يسير ضئيل للغاية، وعن ذلك يقول المترجمان في المقدمة: «وكان من الطبيعي أن نُدْخِلَ على الكتاب بعض الإضافات التفسيرية، وهي تظهر في المتن محصورة بين معكوفتين، وفي الهامش مرفقة بالنص على أنها من وضع المُعَرِّبين، أما الهوامش التي وضعها المؤلف أصلًا فقد قَيَّدْنَاها برقم متسلسل، وإذا كان في الكتاب بضعة آراء خاصَّة بالمؤلف تتنافى مع وجهة النظر الإسلامية، فقد عهدنا بالتعليق عليها إلى زميلنا الدكتور عمر فَرُّوخ ... ولسنا في حاجة إلى القول: إن هذا لا يفيد- بالضرورة- موافقتنا

(١) مقدمة كتاب: «تاريخ الشعوب الإسلامية» ، (ص: ٦) .

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

المؤلف على آرائه الباقية جميعًا؛ لأننا لم نستهدف بالتعليق إلا تلك الآراء التي تتصل بحياة الرسول- ﷺ- وتعاليم الإسلام»[1].

هذا، وإن عدم استقصاء الآراء المنافية لوجهة النظر الإسلامية في الكتاب؛ سواء من قِبَلِ المترجمين، أو المُراجع، والتعليق عليها، يجعل مساحة للرد على بعض الآراء غير الصحيحة، والأفكار التي يكون فيها تجاوزات عن النسق المألوف من وجهة النظر الإسلامية الصحيحة، استدراكًا للنقص الواضح والقصور البَيِّن الذي يلاحظه القارئ في بعض التعليقات كَمًّا وكَيْفًا[2].

وهذا ما سأحاول فعله في هذا البحث الصغير؛ لأنه لا يخفى الخطر الكامن من وجود شبهات وافتراءات تترسخ في ذهن مَن يَطَّلِعُ على هذا الكتاب من غير المتخصصين، أو عامَّة القراء، ما لم يجدوا تفنيدًا لها، وتعقيبًا عليها، فلا بُدَّ- إذن- من البيان والإيضاح والرد على الشبهات والافتراءات حتى لا تلتبس الأمور على مطالع الكتاب وقارئه.

هذا وإن كتاب «تاريخ الأدب العربي» أهم عمل علميٍّ لبروكلمان، وهو يقع في خمسة أجزاء، ولا يقتصر بطبيعة الحال على البحوث الأدبية فحسب، بل يتناول الثقافة الإسلامية في خمسة عصور تاريخية بالتفصيل، كما أنه يُعَدُّ أحد المصادر الأصلية للاستشراق والدراسات الإسلامية إلى الآن، إلا أن كتاب: «تاريخ الشعوب الإسلامية» لا يقل أهمية وفائدة وشأنًا وقيمة عن كتاب «تاريخ الأدب العربي»- إن لم يَفُقْه- ويهدف كتاب: «تاريخ الشعوب الإسلامية» إلى إِطْلاع المعنيين بالسياسة الدولية على نظرة شاملة موجزة لتاريخ المسلمين، وفي هذا يُوَضِّح بروكلمان الغرض من تأليفه: «لا تزال كتابة تاريخ الشعوب والدول الإسلامية منذ نشأتها حتى الوقت الحاضر ضربًا من المحاولة الخطرة؛ لأن مصادر مثل هذا التاريخ لم تصبح بَعْدُ في متناول البحث، ولم تخضع بَعْدُ للتحليل

(١) «تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي» ، عبد الجبار ناجي ، (ص: ٤٦) ، ط: دار الحرية للطباعة ، بغداد: ١٩٨١م .

(٢)«المرجع السابق، الصفحة نفسها.

النقدي، ولا يجرؤ فرد واحد على النهوض بهذا العبء، ومع ذلك فمن الخير- فيما يبدو- أن نُقَدِّمَ للمعنيين بمسائل السياسة الدولية نظرة طائرة عن مصائر المسلمين التي تتشابك اليوم بأحداث العالم على العموم بأكثر مما تشابكت في أي وقت مضى، والتي لا يُمْكِنُ أن تُعْرَض إلا عرضًا أبتر ناقصًا في كتب المراجع وتواريخ العالم العامة»(١).

وخلاصة كتاب «تاريخ الشعوب الإسلامية» نجد أن كارل بروكلمان من خلال بعض آرائه سعى إلى تقديم صورة غير حقيقية عن رسول الله-ﷺ- بنفيه صفة الرسالة ونزول الوحي، كما حاول تقرير أن الإسلام منبثق عن اليهودية والنصرانية، كما شكك بالسنة النبوية وحذّر منها، وأن الآخرة أخذها محمد-ﷺ- من المصادر اليهودية (٢).

ولا يفوتني أن أذكر ما استنكره د. العيساوي من انتشار هذا الكتاب وترجمته للغات عدة وطبعه طبعات عدة، وذلك لعدم دقة المعلومات الواردة فيه، وأنه لا جديد فيه، فالصحيح ليس بجديد، والجديد ليس بصحيح، فهو طعن في عقيدة الإسلام وتكلم على نبيه-ﷺ-، وأن سبب شهرة الكتاب الدوائر الاستعمارية، والمدارس التبشيرية(٣).

وأحب أن أنوه إلى شيء مهم، وهو ما ذكره د: محمود حجازي؛ حيث قال: «من خلال اطلاعي على كتاب «تاريخ الشعوب الإسلامية» وجدت أن بروكلمان أغفل الأخذ من المصادر العربية

---

(١) «تاريخ الشعوب الإسلامية» ، ص: ٨ ، وينظر أيضًا: «كارل بروكلمان ، وكتابه: «تاريخ الشعوب الإسلامية» د .محمد كريم الجميلي ، ود . نوري عزيز أمين، بحث منشور بحولية: الجامعة العراقية، بغداد ، (ص: ٥١- ٥٣) .

(٢) «آثار الاستشراق الألماني في الدراسات القرآنية» أمجد يونس الجنابي، (ص: ٢٢٩- ٢٣٠) ، ط: مركز تفسير للدراسات القرآنية- الرياض ، ط: الأولى-١٤٣٦ هـ ٢٠١٥ .

(٣) «افتراءات المستشرق بروكلمان على التاريخ العربي الإسلامي» د: محمد العيساوي ، (ص: ١٠٩٥) ، ط: دار عمار للنشر والتوزيع- عمان ، ط: ١٤٣٥ه ، ٢٠٠٠٤م .

والإسلامية واكتفى بالمصادر الغربية، وهذا خلل ولا شك في البحث العلمي وقصور في الدقة والموضوعية على بحاثة كبير مثل بروكلمان»(١)، وقال أيضًا د. حجازي: «ورغم أن الكتابة التاريخية من الموضوعات التي تبدو منها وجهة النظر الفردية للباحث، فما زال بروكلمان في «تاريخ الشعوب الإسلامية» لدقته وموضوعيته (النسبية) ذا مكانة بين كل المتخصصين في الدراسات الشرقية، وينبغي ألا نغمط حقه... غير أننا نأخذ عليه القول بمسلمات أوروبية حول الإسلام والرسول-ﷺ-، وكان من الضروري التعليق عليها في الترجمة»(٢).

(١) «تاريخ الأدب العربي» كارل بروكلمان، (١/ ٢٢) مقدمة د: محمود حجازي، ط: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٣م .

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

المبحث الثالث

تحليل نقدي لبعض آراء المستشرق كارل بروكلمان عن عصر الخلفاء الراشدين في كتابه: «تاريخ الشعوب الإسلامية»

قدّم الاستشراق الألماني من النتاج العلمي ما لم تُقَدِّمْهُ بقيةُ المدارس الاستشراقية، وكان على رأس المدرسة الألمانية «كارل بروكلمان» الذي أفنى حياته بدراسة التراث الإسلامي، واللغات القديمة، وما كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» إلا أحد تلك النتاجات العلمية، ولكنه لا يخلو من دَسٍّ وافتراء على تاريخ الإسلام بكل تفاصيله، ومفاصله.

ويُعَدُّ المستشرق الألماني كارل بروكلمان من طليعة المستشرقين الألمان خصوصًا، والأوروبيين عمومًا، الذين أسهموا بتقديم مجموعة من المؤلفات والبحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية، وقد قَدَّمَ ما لم يُقَدِّمْهُ غيرُهُ، فقد أبدع وأجاد في كتابة موضوعات عديدة، وفي شَتَّى المجالات كالأدب، واللغة، والتاريخ، والشِّعْر، وغيرها، وقد كَتَبَ بلغاتٍ عديدة، وتُرْجِمَت لأكثر من لغة، وانتشرت في العالم الإسلامي قبل العالم الغربي المسيحي؛ وذلك لما لها من أهمية بالغة في الدراسات العلمية والأكاديمية، ولكنه رغم كل ذلك الإنتاج الوفير، فإن مؤلفاته قد تناولها المؤرخون والباحثون النُّقَّاد بين مُعْجَبٍ مَفْتُون بها وبمحتواها، وبين ناقد لها ومحذر منها؛ بسبب نزعاته الاستشراقية المعروضة التي لا تخلو من دَسٍّ وتحريف ونَيْل وافتراء على التاريخ العربي الإسلامي، وقادته ورموزه، ويَبْرُزُ من بين تلك المؤلفات كتاب: «تاريخ الشعوب الإسلامية» الذي سوف نتناول دراسة لبعض مفرداته، وأطروحاته، وآرائه وَفْقَ نظرة علمية ونقدية نحاول من خلالها تحليل مادة الكتاب ونقدها، كعملٍ تاريخي قائم على الأمانة العلمية والموضوعية البحثية في إبراز الجوانب الإيجابية والسلبية على السواء.

المطلب الأول: زعم بروكلمان خضوع الأنصار لسلطان المهاجرين؛ لكونهم الأغلبية:

يقول بروكلمان: «ومن ناحية إنسانية كان الأنصار العريقون في المدينة يتوقون إلى التحرير من سلطان الأغلبية المتمثلة في المهاجرين؛ ليصبحوا سادة موطنهم الوحيدين مرةً أخرى [(١)].

المناقشة والتحليل والنقد:

لم يعتمد بروكلمان في هذا الكلام على كتب معينة، أو وقائع بعينها، بل إن رؤيته لأحداث التاريخ الإسلامي، وبحثه فيه كانت بمنظور مادي أوروبي، فهو يرى أنَّ الأنصار يريدون أن ينتقموا من المهاجرين، وكأنه نسي أو تناسى أن مجتمع المدينة بأنصاره ومهاجريه أصبح كيانًا واحدًا بعد أن آخى النبي -ﷺ- بين المهاجرين والأنصار، وأن أخوة الإيمان بين المهاجرين والأنصار ارتفعت بأصحابها فوق مفهوم السيادة في الوطن، وفوق كل التصورات والنعرات الطائفية التي قضى عليها الإسلام؛ فقد كان الأنصاري يُقَدِّمُ لأخيه المهاجر كل شيء؛ لأنه حصل قبل ذلك وبعده عن قناعة، ورضا نفسه، وطمأنينة روحه في سبيل الإيمان الذي آمن به [(٢)].

يقول محمد أبو شهبة: «إن المتأمل فيما قام به الأنصار -رضي الله عنهم- تجاه النبي -ﷺ- وإخوانه المهاجرين ليتعجب مما فعله هؤلاء القوم، ولو ذهب يتلمس الأسباب، فلن يجد إلا سبب الأسباب، وهو أن ذلك كان بفضل الله ورحمته لا بصنع بشر وحكمته وسياسته، قال تعالى: {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[(٣)]، فلم يلتق النبي -ﷺ- بالأنصار إلا في سويعات تحت جنح الليل، واكتفى فيها بعرض الإسلام، وأخذ العهود

---

(١) «تاريخ الشعوب الإسلامية» كارل بروكلمان، (ص: ٨٣).

(٢) «السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون» نور الدين الحلبي، (٢/ ٢٠٧)، ط: در الكتب العلمية، ط: الثانية ١٤٢٧ هـ.

(٣) [الأنفال: ٦٣].

والمواثيق، ولم يطل لقاؤه معهم قبل الهجرة حتى يكون هذا الذي فعلوه، ولم يكن بين دخولهم الإسلام وقيامهم بهذه المآثر إلا أقل من عام»[١].

ألم يستقبل الأنصار بسعادة ما بعدها سعادة رسولَ الله -ﷺ- وأصحابَه الذين هاجروا إلى المدينة؟ أو ليست مواقف الأنصار في غزوات النبي -ﷺ- أكبر شاهد على ذلك؟ قال سعد بن معاذ قبيل معركة بدر الكبرى مخاطبًا النبي -ﷺ-: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، ولعلك يا رسول الله تخشى أن تكون الأنصار ترى عليها ألاّ ينصروك إلا في ديارهم، وإنّي أقول عن الأنصار وأُجيب عنهم، فاظعن حيث شئت وصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وسالم من شئت، وعاد من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، وإنا لصبر في الحرب، صدق اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله تعالى[٢].

واستنادًا إلى ما تقدم يمكنني القول: إنه لا توجد أي شواهد تاريخية على محاولات من قبل المهاجرين لإقصاء الأنصار أو الاستئثار بالسلطة والنفوذ في المدينة المنورة، بالعكس كان هناك تعاون وتآلف وثيق بين الفريقين منذ البداية، خاصة بعد المؤاخاة التي عقدها النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، هذا فضلًا عن تولي الأنصار مناصب قيادية بارزة في الدولة الإسلامية الناشئة، مثل سعد بن عبادة الذي كان أحد كبار القادة العسكريين.

---

(١) ينظر: «السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة» د. محمد أبو شهبة، (٢/ ٥٣)، ط: دار القلم – دمشق، ط: الثامنة ١٤٢٧هـ.

(٢) «السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون»، (٢/ ٢٠٧).

وبعد فتح مكة، خشي الأنصار أن يجلس النبي ﷺ في مكة ولا يرجع معهم، فأكد لهم النبي أنهم جزء لا يتجزأ من الأمة الإسلامية، وأن المحيا محياهم والممات مماتهم، وهذا يدلل على العلاقة الوطيدة المتينة التي أرساها النبي ﷺ وأكدتها المواقف التاريخية المختلفة.

ولعل بروكلمان قصد بكلامه عن الأنصار تلك الفئة المنافقة التي كان يترأسها عبد الله بن أُبَيِّ بن سلول، فهؤلاء لم يكونوا من الأنصار، وإن كانوا من أهل المدينة، وإنما كانوا من المنافقين، وقد فضحهم القرآن الكريم في قول الله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾(١).

كما أن الاستثناء لا يُعد قاعدة، فإن كان هناك واحد أو اثنين أو عشرة من هؤلاء، فهم لم يكونوا يمثلون الأنصار؛ فالغالبية الساحقة كانت قلبا وقالبًا مع النبي-ﷺ-، فأي أغلبية وأي أقلية يتحدث عنها بروكلمان

إن الرواية التي ذكرها بروكلمان لا أساس لها من الصحة؛ فلم يكن للأنصار أي طموح للتحرر من سلطان المهاجرين، بل على العكس من ذلك كانوا حريصين على وحدة المسلمين وطاعة الخليفة، ولو كانوا كذلك لما انصاعوا لأمر أبي بكر الصديق في بيعته، ولما استجابوا لدعوة المسلمين للجهاد في سبيل الله، وبناء عليه، هذه الشبهة لا أساس لها من الصحة، وإنما هي محاولة لتشويه موقف الأنصار الذي كان نموذجًا للتضحية والوفاء والإخلاص للإسلام.

(١) [التوبة: ٥٦] ، ويُنْظر: شوقي أبو خليل ، «بروكلمان في الميزان» ، (ص: ٨٩ – ٩٠) .

المطلب الثاني: زعم بروكلمان أن المسلمين العرب كانوا غزاة قساة مخربين.

قال بروكلمان في كتابه عن فتره الخلفاء الراشدين: «كان الغزاة العرب يجوسون خلال الديار غانمين مخربين»(١).

المناقشة والتحليل والنقد:

ويُرَدُّ عليه بأن الفاتحين المسلمين العرب كانت الحضارة تسير إلى جانب جيوشهم، وترتفع منارات العلم، حيثما ارتفعت راياتهم المنتصرة، وينتشر الأمن، والعدل، والتسامح، والإخاء، حيث يستقر لهم الحكم، وإذا كان بروكلمان يريد تأكيدًا وتوثيقًا لهذا الكلام فليفتح صفحات تاريخ الفتوحات الإسلامية في بلاد فارس، والهند، وفي خراسان، وما وراء النهر، وفي الأندلس، فهذه العبارة لا تصلح أن تُقَال عن العرب المسلمين الفاتحين الذين كانت لسيوفهم أخلاق، وإنما يصح أن يُطْلقها على تتار العصور الوسطى، أو تتار القرون المعاصرة، ولا يصح منه إن كان قارئًا للتاريخ قراءة منصفة أن يقول هذا على المسلمين الذين كانوا ينشرون العدل، والتسامح، والإخاء، ويرفعون الظلم والقهر والاستبداد عن البلاد التي يفتحونها(٢).

هل يظن بروكلمان عندما يكتب في وصفه للعرب والمسلمين خلال فتوحاتهم أنه يكتب عما عرفوا في التاريخ باسم برابرة الجرمان(٣)، تلك الشعوب التي قلبت أوروبا رأسًا على عقب، وحولتها إلى خرائب وأطلال، وأعمدة من ألسنة اللهب والدّخان، واندثرت تحت سنابك خيولهم حضارة الرومان واليونان، وساد الجهل والظّلام في جميع أنحاء أوروبا.

---

(١) كارل بروكلمان، «تاريخ الشعوب الإسلامية»: (ص: ١٠٠).

(٢) يُنْظر: «بروكلمان في الميزان»، (ص: ٩٨ – ٩٩).

(٣) البربر الجرمان هم قبائل تتصف بالهمجية والفوضى والعنف كانت تسكن في المناطق المحاذية للإمبراطورية الرومانية، وكانت مصدر قلق وإزعاج دائم للإمبراطورية الرومانية، وهم أحد أهم الأسباب في سقوطها ينظر: «تاكيتوس والشعوب الجرمانية» إبراهيم علي طرخان، (ص: ٣٧)، القاهرة ١٩٥٩م.

البون شاسع بين هؤلاء وبين المسلمين؛ فالحقيقة أن دولة الخلافة الراشدة التي مثلت الامتداد لدولة النبوة، وأنجزت- في ثمانين عامًا- من الفتوحات أوسع مما فتح الرومان في ثمانية قرون، وكانت فتوحاتها على عكس فتوحات الرومان الاستعمارية- تحريرًا لأوطان الشرق ولضمائر شعوبه ولعقائدها من القهر الإغريقي والروماني؛ ففي مصر على سبيل المثال، رحب الأقباط بالمسلمين كمحررين من الحكم البيزنطي القمعي، وهذه شهادة أحد الأقباط الأسقف (يوحنا النقيوسي)[١]- ثالث رجل في الكنيسة الأرثوذكسية- شاهد عيان على الفتح الإسلامي لمصر، فهو يعتبر هذا الفتح انتقامًا إلهيًّا من ظلم الرومان، فيقول: «إن الله الذي يصون الحق لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين ولم يرحمهم لتجرؤهم عليه، وردهم إلى أيدي الإسماعيليين (العرب المسلمين) فنهض المسلمون وحازوا كل مدينة مصر، .....وكان هرقل حزينًا.. وبأمر الله الذي يأخذ أرواح حكامهم .... مرض هرقل ومات»[٢].

ثم يتحدث النقيوسي عن العدل الإسلامي الذي حل محل الظلم الروماني، فيقول: «وكان عمرو بن العاص يَقْوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددوها، ولم يأخذ شيئًا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئًا ما سلبًا أو نهبًا، وحافظ عليها طوال الأيام»[٣].

كما يتحدث عن تحرير الفتح الإسلامي للبطرك الوطني (بنيامين) الذي ظل هاربًا من الرومان

---

(١) يوحنا النيقوسي: النيقوسي نسبة إلى مدينة نقيوس المصرية القديمة بمركز منوف، كان أسقفا من القرن السابع الميلادي لاإراشية مدينة نقيوس ، عاش في عهد باباوية البطريرك بنيامين بابا الإسكندرية ، ولا يعرف تحديدًا تاريخ مولده ، ويبدو أنه عاش في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي حتى مستهل القرن الثامن الميلادي ، وفاته كانت بعد عام ٧٠٠ ميلادية . يُنْظر: «مقدمة مترجم تارخ العالم القديم للنقيوسي» الأنبا بيشوي ، (ص: ٧- ٨) دون .

(٢) يُنْظر: «تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي رؤية قبطية للفتح الإسلامي» ترجمة ودراسة: د . عمر صابر عبد الجليل ، (ص: ٢٠٣) ، ، ط: دار عين للدراسات والبحوث – القاهرة ٢٠٠٣م .

(٣) يُنْظر: المرجع السابق، (ص: ٢٢٠) .

ثلاثة عشر عامًا، وعن تحرير هذا الفتح كنائس الأرثوذكس وأديرتهم من الاغتصاب الروماني، وكيف استقبل عمرو بن العاص البطرك (بنيامين) وكرّمه، وكيف زار البطرك كنائسه وأديرته المحررة، وخطب فيها، متحدثًا عن العدل الإسلامي الذي حل محل الظلم الروماني، فقال في دير دي مقاريوس بالإسكندرية: «لقد وجدت في الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما بعد الاضطهادات والمظالم التي قام بتمثيلها المارقون»[(١)].

وبعد شهادة الأسقف يوحنا النقيوسي بثلاثة عشر قرنًا، يؤكد المؤرخ القبطي هذا العدل والتسامح، فيقول: «ولما ثبت قدوم العرب في مصر، شرع عمرو بن العاص -رضي الله عنه- في تطمين خواطر الناس واستمالة قلوبهم إليه واكتساب ثقتهم به، وتقريب سراة القوم وعقلائهم منه، وإجابة طلباتهم، وأول شيء فعله من هذا القبيل استدعاء (بنيامين) البطرك، الذي اختفى من أيام هرقل ملك الروم، فكتب أمانًا وأرسله إلى جميع الجهات يدعو فيه البطرك إلى الحضور، ولا خوف عليه ولا تثريب، ولما حضر وذهب لمقابلته ليشكره على هذا الصنيع، أكرمه، وأظهر له الولاء، وأقسم له بالأمان على نفسه وعلى رعيته، وقربه إليه، وصار يدعوه في بعض الأوقات ويستشيره في الأحوال المهمة المتعلقة بالبلاد وخيرها، وقد حسب الأقباط هذا الالتفات منه عظيمة وفضلًا جزيلًا لعمرو -رضي الله عنه-، كما استعان عمرو في تنظيم البلاد بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة تضمن راحة الأهالي؛ فقسم البلاد إلى أقسام يرأس كلا منها حاكم قبطي ينظر في قضايا الناس ويحكم بينهم، ورتب مجالس ابتدائية واستئنافية مؤلفة من ذوي نزاهة واستقامة، وعين نوابًا من القبط، ومنحهم حق التدخل في القضايا المختصة بالأقباط، وبالحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والأهلية، وهذه ميزة

(١) يُنْظر: «تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي رؤية قبطية للفتح الإسلامي» ، (ص: ٢٢١) .

كانوا قد جُردوا منها في أيام الدولة الرومانية»[١].

وعلاوة على ما سبق من الإصلاح الديني والسياسي والإداري والقضائي، يضيف المؤرخ القبطي إصلاحًا من نوعٍ آخر، وهو الإصلاح المالي الذي طبقه عمرو بن العاص على مصر بعد أن كان الحكم الروماني أرهقهم بالضرائب حتى صاروا عمالًا يعملون بالسخرة لحساب الاحتكار الروماني، فقال: «وضرب عمرو بن العاص الخراج على البلاد بطريقة عادلة، وجعله على أقساط، وفي آجال معينة، حتى لا يتضايق أهل البلاد»[٢].

في ضوء ما سبق، يتضح أن الفتوحات الإسلامية لم تكن مجرد حركات عسكرية بحتة، بل كان هناك بعد تحرير واضح لها، حيث أنقذت الشعوب المضطهدة وأقامت أنظمة عادلة ومستقرة مكان الأنظمة الفاسدة، كما أتاحت للناس حرية العقيدة والممارسات الدينية وعززت مبادئ المساواة والعدالة الاجتماعية. وبالتالي، فإن الفتوحات الإسلامية كانت في المقام الأول لتحرير الشعوب وإنقاذهم من الظلم والاستبداد، ومن أبلغ الأدلة عل ذلك أن الشعوب المحلية كانت تستقبل المسلمين كمحررين وليس كغزاة.

(١) يُنْظر: «تاريخ الأمة القبطية» يعقوب نخلة روفيلة ، (ص:٥٤- ٥٧) ، تقديم ، د: جودت جبرة ، ط: مؤسسة مارمرقس لدراسة التاريخ ، القاهرة ٢٠٠٠م .

(٢) يُنْظر: «تاريخ الأمة القبطية» يعقوب نخلة روفيلة ، (ص: ٥٧) .

المطلب الثالث: زعم بروكلمان أن أبا بكر الصديق لم يكن يحالفه التوفيق على الساحة الدولية.

قال بروكلمان في كتابه عن فتره الخلفاء الراشدين: «لم يحالفه التوفيق في الحكم على الحالة الدولية، وبخاصَّة فيما يتعلق ببيزنطة، تَطَلَّعَ أول الأمر إلى المشرق نحو الإمبراطورية الفارسية، بَعْدَ أنْ رأى ضعفها البَيِّن منذ عهدٍ غير قصير»(١).

المناقشة والتحليل والنقد:

وهنا نتساءل: ما الدليل على ما يقوله بروكلمان؟ وأين تَلَمَّسَ هذا الكلام؟ وما المصادر التي جعلته يرى هذا الرأي؟ ما الدلائل التي اطلع عليها بروكلمان فعرف أن أبا بكر الصديق رأى ضعف الإمبراطورية الفارسية، فتطلع أولًا إليها، وترك بيزنطة؛ هذا كلام ليس موضوعيًّا، وليس سليمًا، بل «إن أبا بكر الصديق-رضي الله عنه- حالفه التوفيق في جميع مراحل حياته وأعماله كلها، وخصوصًا عندما تَوَلَّى الخلافة، لقد سَيَّرَ الصديق-رضي الله عنه- جيشَ أسامه بن زيد -رضي الله عنه- والعرب في ردتهم، وهم بحاجة إلى هذا الجيش، ولكنه أراد إفهام مَن طَمَعَ في هذه الأمة بعد سماعهم أنباء الردة أنَّ هذه الأمة الفَتِيَّة مهيبة الجانب، راسخة البنيان، قوية ومتينة في ذاتها- رغم ردة بعض الأعراب- فأَفْهَمَ بيزنطةَ كما أَفْهَمَ الفرسَ أيضًا أنه لو كان أمر الردة أمرًا جَلَلًا لاحتفظت بهذا الجيش، بل لو كان الأمر خطيرًا، وكان الجيش خارج الجزيرة لاستدعاه لتهدئة الأحوال الداخلية، واستطاع «نحيف بني تيم» أبو بكر الصديق-رضي الله عنه- القضاء على المرتدين، فنقل العرب بالإسلام من جحيم مُسْتَعِر أراده المرتدون إلى فردوس مُزْدَهِر، غرسه رسول الله سيدنا محمد-صلى الله عليه وسلم- بيده(٢).

وعندما فرغ الصديق-رضي الله عنه- من هذه الحروب، قَدَّرَ الموقف الدولي تقديرًا دقيقًا وبشكلٍ سليمٍ صحيحٍ، فَسَيَّرَ خالدَ ابنَ الوليد-رضي الله عنه- من اليمامة إلى العراق، سنة (١٣ هـ)، ولو لم يُجَهِّز أبو

(١)يُنْظر: «تاريخ الشعوب الإسلامية» :(ص: ٩٠) .

(٢) يُنْظر: «بروكلمان في الميزان» ، (ص: ١٠٥) باختصار وتصرف .

بكر الصديق-رضي الله عنه- جيشًا إلى بيزنطة في السنة ذاتها، لَصَحَّ قول بروكلمان إلى حَدٍّ ما، لكن في سنة (١٣ هـ) جَهَّزَ أبو بكر الصديق-رضي الله عنه- الجيوش إلى الشام، فَسَيَّرَ عمرو بنَ العاص إلى فلسطين، ويزيدَ بنَ أبي سفيان إلى دمشق، وأبا عُبَيْدَة بنَ الجراح إلى حمص، وشرحبيل بن حسنة إلى الأردن»[١]، هل يَعزُب عن علم بروكلمان ومعرفته أن اليرموك وهزيمة بيزنطة كانت قبل القادسية؟

وهنا أتساءل ألا يعلم بروكلمان أنَّ أبا بكر الصديق-رضي الله عنه- سَيَّرَ في عام واحد، وهو عام (١٣ هـ) الجيوش إلى الجهتين البيزنطية والفارسية في وقت واحد، وتَطَلَّعَ إلى المشرق وإلى المغرب في آن واحدٍ- وإن كان لا يعلم ذلك وهذا شيء مستبعد- فلا يصح أن يخط حرفًا واحدًا في التاريخ الإسلامي، وإن كان يعلم- وهذا شيء مؤكد- ثم كتب ما كتب، فهو بذلك يُثْبِتُ عدم الموضوعية في أبحاثه ودراساته، وعدم الشمولية، والبُعْد عن الجِدَّة، وضياع من يعتمد أبحاثه، أو يتكئوا عليها[٢].

ودليل آخر على التوفيق الذي حالف أبا بكر الصديق-رضي الله عنه- في حكمه على الساحة الدولية، «وخصوصًا فيما يتعلق ببيزنطة أن عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- سار على سياسة الصديق-رضي الله عنه- ذاتها، فبقيت الجبهتان مفتوحتين في الشرق والغرب جبهة الفرس، وجبهة بيزنطة، ولو كان تقدير الصديق-رضي الله عنه- خطأً، لغَيَّرَ الخليفة عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- إستراتيجيته، ولقد استمرت هذه الإستراتيجية حتى أيام الأمويين؛ جبهة شرقية وصلت السِّنْد بقيادة محمد بن القاسم الثقفي، وجبهة غربية بقيادة طارق بن زياد، وموسى بن نصير، ودليل التوفيق أن هذه السياسة أوصلت المسلمين الفاتحين إلى قلب الصين، وإلى قلب فرنسا، ومنابع الصين»[٣].

---

(١) يُنْظر: «تثبيت دلائل النبوة» تأليف: الفاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني، (١/ ٢٢٧)، الناشر: دار المصطفى - شبرا- القاهرة.

(٢) يُنْظر: «بروكلمان في الميزان»، (ص: ١٠٧) باختصار وتصرف.

(٣) يُنْظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها، باختصار وتصرف.

أما قول بروكلمان أن أبا بكر الصديق-رضي الله عنه- قد بدأ بالجبهة الفارسية لضعفها البَيِّن منذ عهد غير قصير، فهذا افتراء كَرَّرَه المستشرقون المبشرون في كتاباتهم، ورددته أبواقهم، مثل جورجي زيدان، وفيليب حتى.

ماذا يعني أن المسلمين العرب الفاتحين انتصروا على دولتين واهيتين ضعيفتين؟! و«العرب المسلمون ما خافوا من أعدائهم في جزيرتهم، مع أنهم ما دخلوا معركة إلا كانوا فيها أقل من أعدائهم عددًا وعتادًا، ورغم ذلك فقد حَقَّقُوا انتصارات كبيرة، وفي اليرموك لم يكونوا أكثر من الروم البيزنطيين، ومن المعلوم أن ترتيبات الفُرس والروم عريقة، وإمداداتهم وعتادهم عظيمان، وهما يحاربان في أراضيهم، والمسلمون العرب في بلاد بعيدة عن عاصمتهم، وإمداداتهم محدودة جدًّا، لقد حاربوا دولتين؛ كُلّ واحدةٍ منهما أغنى منهم رجالًا، ومالًا، وخبرة، ولماذا نقول: إن الفرس والروم قد أُنهكوا في المعارك، ولا نقول إنهما قد اكتسبتا فنونًا عديدة، وخبرة كبيرة، وميراثًا طويلًا عبر حروبهما؛ فعندما خرج العرب المسلمون فاتحين من جزيرتهم كان الروم يستصغرون شأنهم، وكان الفرس يحتقرون قدراتهم، ويُسَمُّونَهم الجياع، وإذا نظرنا إلى النصر العسكري الذي حَقَّقَهُ المسلمون في الجبهتين، لوجدنا أنه لا قيمة له إذا قُورِنَ بانتصار العقيدة؛ فلقد استمرت حروب الفرس والروم فيما بينهما أربعمائة سنة دون حسم؛ لأن حروبهما كانت لأطماع دنيوية، ولما جاءت عقيدة الفاتحين المسلمين فَلَّت كل سلاح، وتهاوت أمامها جيوش الفرس والروم»[1].

وفي ضوء ما سبق أقول: إن خلافة أبي بكر الصديق كانت في غاية التوفيق والنجاح، فقد استطاع بحكمته وفراسته أن يحقق الوحدة بين المسلمين ويواجه التحديات التي واجهت الدولة الإسلامية في تلك الحقبة، ولقد نجح في إخماد فتنة الردة وهزيمة المرتدين، وكذلك إرسال الجيوش للجهاد في سبيل الله؛ مما أسهم في انتشار الإسلام وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية، وعلى الصعيد الدولي،

(١) يُنْظر: «بروكلمان في الميزان» ، (ص: ١٠٨) بتصرف واختصار .

نجح أبو بكر الصديق في الحفاظ على علاقات جيدة مع الدول المجاورة، وبهذا يتبين أن ما ذكره بروكلمان هو ادعاء باطل وخطأ، وأن خلافة أبي بكر كانت حافلة بالنجاح والانتصارات على جميع الأصعدة.

المطلب الرابع: زعم بروكلمان أن الحسن بن علي آثر مفاوضة معاوية، وتنازل عن حقه في الخلافة على أن تُتْرَك له خمسة ملايين درهم، كانت في بيت المال بالكوفة[١].

المناقشة والتحليل والنقد:

الحسن ﷺ سليل وربيب بيت النبوة فلا يصح بحال من الأحوال أن تصدر عنه مثل هذه الأمور، والحقيقة التاريخية التي لا مراء فيها أن الحسن-ﷺ- إنما تنازل عن الخلافة حقنًا لدماء المسلمين والشواهد على ذلك كثيرة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

أولًا: الحسن أرسل إلى معاوية يبذل له تسليم الأمر إليه على أن تكون له الخلافة بعده، وعلى ألا يطلب أحدًا من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء مما كان أيام أبيه (دم عثمان)[٢].

ثانيًا: لما رأى الحسن أن الأمر عظيم تُراق فيه الدماء، ورأى اختلاف أهل العراق، سلم الأمر إلى معاوية، وعاد إلى المدينة[٣].

ثالثًا: وكان الحسن يقول: «ما أحببت أن أَليَّ أمر أمة محمد-ﷺ- على أن يُراق في ذلك محجمة دم»[٤].

رابعًا: الحسن قال لعبد الله بن جعفر: إني رأيت رأيًا أحب أن تتبعني عليه، قلت ما هو؟ قال: رأيت

---

(١) «تاريخ الشعوب الإسلامية»، (ص: ١٢١).

(٢) ينظر: «أسد الغابة» لابن الأثير، (١/ ٤٩٢)، ط: دار الفكر- بيروت، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م. بتصرف واختصار.

(٣) ينظر: المرجع السابق، (٤/ ٤٣٥).

(٤) ينظر: المرجع السابق، (١/ ٤٩١).

أن أعمد إلى المدينة فأنزلها وأخلي الأمر لمعاوية؛ فقد طالت الفتنة وسفكت الدماء وقطعت السبل، فقال عبد الله بن جعفر جزاك الله خيرًا[١].

خامسًا: لما وافقه أخوه الحسين على التنازل لمعاوية بعد معارضة بسيطة، قام الحسن وقال: يا أيها الناس إني كنت أكره الناس

لأول هذا الحديث وأنا أصلح آخره الذي حق أديت إليه حقه، أحق به مني أو حق حدث به لصلاح أمة محمد-ﷺ-.[٢]

وهنا يظهر أن الحسن-رضي الله عنه- كان رجل الساعة، وتَحَقَّقَت فيه بشارة النبي-ﷺ- حينما حقن دماء المسلمين، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ-رضي الله عنه- قال: أخرج النَّبِيُّ-ﷺ- ذَاتَ يَوْمٍ الحسن، فصعد به على المنبر، فقال: «ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِن المُسْلِمِينَ»[٣]، فالتنازل كان رغبة في حقن دماء المسلمين وتوحيدًا لكلمتهم بعد الذي حدث في الفتنة الكبرى من أحداث معارك، فكان التنازل تخيبًا لآمال الذي أرادوا الشر للمسلمين، كما كان مصدر سعادة واستقرار للمسلمين بعد الفتن والقتال[٤].

---

(١) «الإصابة في تمييز الصحابة» تأليف: أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، (٢/ ٦٥) ، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ، ط: دار الكتب العلمية - بيروت ، ط: الأولى- ١٤١٥ هـ

(٢) «تاريخ دمشق» تأليف: علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر ، (١٣/ ٢٧٥) ، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي ، ط: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥م .

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» ، كتاب: المناقب ، باب: علامات النبوة في الإسلام (٣/ ١٣٢٨) ، ح رقم: (٣٤٣٠) .

(٤) يُنْظر: «أحداث ومواقف في تاريخ الدولة الأموية: دراسة تحليلية (٤٠- ١٣٢هـ/ ٦٦٠-٧٥٠م)» د . عبد المنعم يوسف عبد الحفيظ ، (ص: ٥٧) . بحث محكم منشور في مجلة القلزم العلمية للدراسات التاريخية والحضارية، مجلة علمية دولية محكمة، العدد الرابع والعشرون- ذو القعدة ١٤٤٤هـ- يونيو ٢٠٢٣م .

ولقد رأى الحسن أنه لا ينبغي له أن يثق بمن حوله من أصحاب أو جموع، فقد أخبرهم وعَرَّفَهُم بما قاساه والده-كرم الله وجهه- منهم، ومنذ بيعة الحسن ظهر عدم ميله إلى الخلافة، فقد اتفق واشترط على مَن بايع في العراق بقوله: إنكم سامعون مطيعون، تُسالمون مَن سالمت، وتُحاربون مَن حاربت، ثم قَرَّرَ-رضي الله عنه- التنازل لمعاوية، وسُمِّيَ عام (٤١ هـ) عام الجماعة، وعندما قام الحسين-رضي الله عنه- وسار إلى العراق أيام يزيد بن معاوية، كما قال الفرزدق له: «قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية»، وكما قال جماعة عن أهل الكوفة: «إن أفئدتهم تهوى إليك، وسيوفهم غدًا مشهورة عليك».

لقد رأى الحسن أباه، والأعراب مِن حوله، يخذلونه كلما جاءت ساعة الفصل، فآثر التنازل حقنًا لدماء المسلمين(١).

واستنادًا إلى المعلومات السابقة وفي ضوئها، تبيّن بجلاء خطأ بروكلمان فيما ذهب إليه؛ فلقد كان الحسن بن علي رجل الساعة، خاصة أنه لم يكن يطمع في الخلافة لذاتها، بل كان هدفه الأسمى ومقصده الأعلى هو الحفاظ على وحدة المسلمين وحماية دمائهم من الفتنة والحرب الأهلية؛ ولذلك تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لأجل الوحدة وتجنبًا للدماء التي كانت ستراق لولا هذا التصرف الحكيم. أما فيما يخص المبلغ المالي الذي ذكره بروكلمان، فهذا ادعاء غير صحيح ولا يوجد مصدر تاريخي واحد يؤيد هذا؛ ولهذا فإن التضحية التي قام بها الحسن بتنازله عن الخلافة كانت محل إجلال وتقدير من المسلمين عبر تاريخهم، وها نحن ننظر إليها اليوم بعين التقدير الاحترام.

(١) يُنْظر: «بروكلمان في الميزان» ، (ص: ١٠٨ - ١٠٩) ، بتصرف .

المطلب الخامس: وصف بروكلمان فترة الجهاد في عهد الخلافة الراشدة؛ فأصبح الهدف من الجهاد هو جلب المال والغنى لا نشر العقيدة والإسلام.

المناقشة والتحليل والنقد:

لقد وصف بروكلمان فترة الجهاد في عهد الخلافة الراشدة بأنها كانت من أجل الحصور على المال قائلًا: «طالما كان الدافع إلى تلك الفتوحات هو جلب المال والقوت أكثر من الرغبة في نشر الدين»[(١)]، وهذه الدعوى هي من أبرز ما رَكَّزَ عليه المستشرقون، وأجمعوا عليه، ولا عجب في ذلك، فهم ينطلقون من مقاييسهم المادية البحتة، فلقد اعتبروا الفتح الإسلامي من أجل الحصول على المال، ومن أجل استبدال صحاري العرب الجرداء، التي لم تنتج لهم إلَّا حياتهم على البؤس والشقاء، بأرض ذات ترف ونعيم في أقطار جديدة.

إن بروكلمان ينكر حتى «الحماسة الدينية في الفتح الإسلامي؛ لأنه يجهل حقيقة الدافع الديني لدى المسلمين ومدى إيمان هؤلاء الأوائل بوجوب تحمل مسئولية تبليغ الدين... والحقيقة التي لا مراء فيها أن الفاتحين خرجوا؛ لأنهم مكلفون بإيصال هذا الدين إلى أهل الأرض كافة؛ لأن رسولهم -ﷺ- أُرسل إلى الناس كافة؛ فالغاية من الخروج والجهاد، هو بث الدعوة ونشر الدين الإسلامي في جميع أنحاء الدنيا، وليس البحث عن الجباية وجمع المال كما يزعم بروكلمان»[(٢)].

كما أجاب على تلك الدعوى أ.د. عبد العزيز الدوري، حين قال: «لقد أَدَّتْ الفتوحات من الناحية السياسية إلى تكوين وحدة سياسية كبرى تَمَثَّلَتْ بالخلافة، وأما من الناحية الدينية، فقد أَدَّت إلى انتشار الإسلام، ولغويًّا إلى انتشار اللغة العربية، وأما في الحقل الاقتصادي، فقد أَدَّت إلى تكوين

---

(١) يُنْظر: «تاريخ الشعوب الإسلامية»: (ص: ٩٥).

(٢)ينظر: «افتراءات فيليب حَتّى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي»، عبد الكريم علي باز، السعودية، ط: ١، عام: ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م، (ص: ١١١ - ص: ١١٤). بتصرف

منطقة اقتصادية كبرى، وهيأت الفتوحات الوسط المناسب للاختلاط بين الشعوب والثقافات، والتفاعل في إطار من الإسلام والعروبة»[١].

ولا يفوتني أن أذكّر بروكلمان بقول عمر بن عبد العزيز: «إن الله بعث محمدًا -ﷺ- داعيًا ولم يرسله جابيًا»[٢]، ونقول لو خرج المسلمون بغية الثراء والغنى، لاكتفوا بأرض الشام وطاب لهم المقام هناك، وما اصطدموا بالدولتين الكبرتين (فارس، والروم)، دون أن يكون هناك تكافؤ بالمقاييس المادية بين الفاتحين والدولتين، لا في العدد ولا في العتاد، فما من معركة خاضها المسلمون إلا وواجهوا قوات أكثر عددًا وعتادًا، ولم نعدم مستشرقا منصفًا من جلدتهم يرد هذه الفرية؛ فالتاريخ زاخر بهؤلاء، منهم المستشرق «الويس موسل»[٣] حيث قال: «إن الجيوش الإسلامية التي اشتركت في فتح العراق والشام وفلسطين لم تكن حجازية أو نجدية فحسب، بل كانت قبائل عراقية وشامية»[٤].

وأخيرًا أقول لقد استنفر الإسلام المسلمين لتبليغ دعوته، وأمرهم أن ينفروا خفافًا وثقالًا، وأن يقدموا أنفسهم وأموالهم لله خالصة، قال تعالى: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ

---

(١) «أوراق في التاريخ والحضارة، أوراق في الفكر والثقافة» د: عبد العزيز الدوري ، (ص: ١٨٢) ، ط: مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط: الثانية: ٢٠٠٩م .

(٢) «أحكام القرآن» تأليف: أحمد بن علي أبي بكر الرازي الجصاص ، (٣/ ١٣٢) ، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين ، ط: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، ط: الأولى ، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤م .

(٣) ألويس موسيل: (١٨٦٨- ١٩٤٤م) أحد مستشرقي الإمبراطورية النمساوية المجرية، أستاذ جامعي وأحد مشاهير الرحالة الأوروبيين الذين قاموا بزيارة الجزيرة العربية ، عاش في بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية ووسطها كمستشرق ومدرس وباحث جغرافي اجتماعي وسياسي ، وصفته جامعة القديس يوسف بأنه كان أهم محاضريها سنة (١٩٠٢م) ، من آثاره: (كتاب: شمال نجد) ، (شمال الحجاز) ، (أخلاق الرواة وعاداتهم) . ينظر: كتاب «أركان البادية» د: إبراهيم كريدية ، (ص: ٢١٠- ٢١١) ط: مكتبة نوفل- بيروت- لبنان ، ط: الخامسة ٢٠٠٥م .

(٤) «افتراءات فيليب حَتّى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي» ، (ص: ٥٣) .

فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[١].

وهو ما يعني أن الدعوة كانت هي الهدف الأسمى، والمقصد الأسنى، وأنّ من يقدم حياته من أجل عقيدته لا يُفكر بالغنائم،

فلو كانت جباية المال هي الهدف- كما زعم بروكلمان- لما خرج أهل الشام والعراق مع الجيوش الإسلامية، ولما خرج العرب من الشام للقتال، ما داموا بلغوا أرض الخصب والرخاء.

إنَّ من الملاحظ من أسلوب هذه الفئة من المستشرقين وتفاسيرها لأحداث الفتوحات أنها تتسم بالحقد والعداء تجاه سياسة الفتوحات الإسلامية؛ لأن الدولة الإسلامية في ثمانين عامًا فتحت ما عجزت عنه دولتين كبيرتين مثل فارس والروم.

وبقراءة منصفة للتاريخ، يدرك ذوو العقول أن إرسال الجيوش الإسلامية لم يكن بهدف الجباية أو جمع المال، بل كان من بركات هذا الدين أنه أخرج من جزيرة العرب هؤلاء الفتية المؤمنة الصادقة ليحرروا الأرض من المستعمرين والمستبدين، وليحرروا إخوانهم في الإنسانية من عبودية العباد إلى عبادة رب العباد، وليس أدل على هذا من ترحيب قبط مصر بهؤلاء الفاتحين؛ فلم يكن الهدف من الفتح جمع المال والغنائم، بل كانت الفتوحات بهدف نشر الإسلام وتحرير الشعوب من الظلم والاستبداد، ونشر سلطان الإسلام ولوائه على الأرض المفتوحة وعدم قهر الناس أو قسرهم على الإسلام.

(١)[التوبة: ٤١].

المطلب السادس: زعم بروكلمان أن الإسلام في عهد الخلافة الراشدة انتشر بحد السيف.

المناقشة والتحليل والنقد:

قال بروكلمان: «كان من الضروري لدوام الإسلام أن يستمر في خطته العدوانية، وأن يُنَفِّذَ بِحَدِّ السيف ما يطالب به من دخول الناس في الإسلام كافَّة، أو بسط سيطرته على العالم»[١].

وللجواب نقول: إن العرب ومَن كان تحت حكم الإسلام من أعراق أخرى كانوا حملة عقيدة بَدَّلَت حياتهم، ومفاهيمهم، وقيمهم، وأنهم حملوا رسالة حضارية إلى شعوب الأرض تَمَثَّلَت بها سلوكًا ومعاملة، فإنْ وُجِدَ غير ذلك فهو الشذوذ عن القاعدة، وإنَّ العرب المسلمين ما نظروا إلى الشعوب الأعجمية كنظرة أوروبا إلى مستعمراتها، وقسمتهم إلى سادة وعبيد[٢].

وهنا لا بد من الإشارة إلى الأدلة التاريخية التي تُثبت أن انتشار الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين لم يكن بالسيف، وأن التسامح الديني وحرية الاعتقاد وإقامة العدل بين أتباع الديانات المختلفة في المناطق الخاضعة للحكم الإسلامي كانت من أجدى وأبرز الوسائل النافعة في نشر الإسلام؛ فعلى سبيل المثال نأخذ فتح بيت المقدس أنموذجًا:

حينما فتح أبو عبيدة بن الجراح ﷺ مدينة القدس واشترط صفرونيوس[٣] بطريق بيت المقدس أن يسلم مفاتيح بيت المقدس لعمر بن الخطاب ﷺ، فسار إلى المدينة وخرج

---

(١) «تاريخ الشعوب الإسلامية»: (ص: ١٠٠).

(٢) يُراجع: شوقي أبو خليل، «بروكلمان في الميزان»، (ص: ١٠١).

(٣) صفرونيوس بطريق بيت المقدس ولد (٥٨٠) في مدينة دمشق، أنتخب بطريركا على مدينة القدس سنة (٦٣٤م)، وفي أيامه ظهر الإسلام في الحجاز، وابتدأت الفتوحات الإسلامية، له مقالات عدة وكتابات تعليمية وأناشيد كنسية ترتل الى اليوم: "صوتُ الرب على المياه.." التي تُتلى في عيد الظهور الإلهي، ورؤساء الشعوب اجتمعوا على الرب.." التي تُرتَّل يوم الخميس العظيم، توفي سنة (638م) صفرونيوس – ويكيبيديا wikipedia .org))

صفرونيوس بطريق بيت المقدس إلى عمر بن الخطاب فأعطاه عمر ﷺ أمانًا وكتب لكل كورة[١]. كتابًا واحدًا ما خلا أهل إيلياء. وهذا نص عهد أهل إيلياء:

«بِسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تُسكن كنائسهم، ولا تُهدم، ولا يُنتقض منها ولا من حيّزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم اللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية، شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية ابن أبي سفيان»[٢].

إن الدين الإسلامي هو آخر الأديان السماوية، ختم الله به الأديان، ورضيه للعالمين بعد كماله، وقد أثبت الدين الإسلامي نجاحه في الحياة على مَرِّ العصور مع تَغَيُّرِ الزمان والمكان؛ فلم تنعم البشرية بالعدل والمساواة والحرية والإخاء كما كانت في ظله، وتلك حقيقة واقعة، وليست من نسج الخيال، ولكن كثيرًا من الناس يغفل أو يتغافل عنها إما جهلًا وإما حسدًا؛ فالأجهزة السياسية

---

(١) الكورة: مصطلح استخدمه المسلمون لوصف الوحدات الإدارية السياسية في المناطق التي كانت تخضع لحكم الرومان .

(٢) يُراجع: «خطط الشام» محمد بن عبد الرزاق بن محمَّد، كُرْد عَلي ، (١/ ٨٤) ، ط: مكتبة النوري ، دمشق ط: الثالثة ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م .

والإعلامية والفكرية في الغرب توجهت نحو المسلمين وحدهم، وألصقت تهمة السيف والإرهاب بهم من دون كل البشر، وبالإسلام دون باقي الملل والنحل، ولا شك أن هذه الوثيقة العمرية تدحض هذه الشبهة وتلقيها في مزبلة التاريخ؛ لأن التاريخ خير شاهد كيف كان نشر الإسلام.

إن قضية انتشار الإسلام بالسيف قضية قديمة حديثة أحدثت جدلًا طويلًا عبر التاريخ الإسلامي، والحقيقة أن المصادر التاريخية تشير إلى أن الخلفاء الراشدين منحوا الأقليات الدينية حقوقًا واسعة وحرية ممارسة شعائرهم، كما تؤكد أن الدعاة المسلمين قاموا بنشر الإسلام عبر التبشير والتعليم وليس باستخدام القوة والسيف، وأن انتشار الإسلام كان مرتبطًا أيضًا بازدهار التجارة بين المناطق الخاضعة للحكم الإسلامي والمناطق المجاورة. وكانت الدعوة إلى الإسلام بالحكمة وبالأخلاق الحسنة، كما أن الدول التي دخلها الفاتحون لم يفرضوا الإسلام على أهلها قهرًا، وإذا كان ثمة قتال فإنه كان لرد عدوان، ورفع ظلم واستعباد، قال الله تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}(١)، وحرص الإسلام على السلم وعدم القتال، قال الله تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}(٢)، ولقد رسم القرآن الكريم منهج الإسلام في الدعوة إلى الله بقوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}(٣).

ولا يخالجني شك إن قلت إن الإسلام لم ينتشر بالقهر والغلبة؛ فهناك بلاد كثيرة دخلها الإسلام عن طريق التجار كإندونيسيا وماليزيا وغيرها من بلاد شرق آسيا، وحتى البلاد التي تم فتحها لم يُجبر

(١) [البقرة: ١٩٠].

(٢)[الأنفال: ٦١].

(٣)[النحل: ١٢٥].

المسلمون أحدًا فيها على اعتناق الإسلام، وقد جاءت هذه الشهادة المنصفة في كتاب: «الدعوة إلى الإسلام»، الذي ألفه توماس أرنولد، وبحث فيه تاريخ نشر العقيدة الإسلامية في أقطار الأرض، وفي هذا الصدد يقول: «إن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة، وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح»(١).

المطلب السابع: زعم بروكلمان أن روح الردة اجتاحت بلاد العرب بأكملها، ولم يكن للدوافع الدينية في ذلك دَوْرٌ يُذْكَرُ، وإنما أُرِيدَ فقط التخلص من سلطة حكومة المدينة غير المريحة.

المناقشة والتحليل والنقد:

تَحَدَّثَ بروكلمان عن الأحداث التي جَرَتْ في عهد خلافة أبي بكر الصديق-رضي الله عنه- وتناول حركة الرِّدَة التي تَعَرَّضَتْ لها شبه الجزيرة العربية فيقول: بَيْدَ أَنَّه لم تلبث أنْ اجتاحت بلاد العرب بأكملها روح الرِّدَة، ولم يكن للدوافع الدينية في ذلك دَوْرٌ يُذْكَرُ، وإنما أُرِيدَ فقط التَّخَلُّص من سلطة حكومة المدينة غير المريحة(٢)، فلو كَلَّفَ بروكلمان نَفْسَهُ، ودرس أسباب الرِّدَة، وظواهرها لوجد أنَّ أقوى الدوافع وأخطرها كانت مرتكزة على الناحية الدينية، وذلك على النحو التالي:

أولاً: الرغبة في التحلل من قوانين الدين الإسلامي والرجوع إلى الإباحية الجاهلية.

وهذا الذي عناه بروكلمان في قوله سلطة المسلمين غير المريحة؛ فالمرتدون عندما رغبوا في التخلص من سلطان وقيود الشريعة الإسلامية، والرجوع إلى شهواتهم ومنكراتهم وحياتهم الحيوانية الجاهلية التي عاشوها قبل الإسلام، كان هذا دليلًا أنهم لم يعرفوا الإسلام حق المعرفة، ولم يكتشفوا

(١) ينظر: «الدعوة إلى الإسلام» توماس أرنولد، ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، ود. عبد المجيد عابدين إسماعيل النحراوي، . (ص: ٦٩ – ٧٠). ط: مكتبة النهضة المصرية ١٩٧١م.

(٢) كارل بروكلمان، «تاريخ الشعوب الإسلامية»: (ص: ٨٤).

جوهره ولم يخالط الإيمان بشاشة قلوبهم؛ ولذلك ارتدوا ونكصوا على عقبهم بعد موت النبي- ﷺ-، قال تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}(١).

فهؤلاء الأعراب كان إيمانهم سطحيًّا، فأرادوا بعد موت النبي- ﷺ- الرجوع للملذات وحياة المنكرات، وذلك لم يتم لهم إلا بعد التخلص من السلطة السياسية المتمثلة في الخليفة، فسعوا للتخلص من السلطة السياسية- بالارتداد عن الدين الإسلامي- حتى يتمكنوا بعد ذلك من التخلص من القيود الدينية.

وهذا ما ذكره كثير من المؤرخين؛ فقد أوجد الإسلام نظمًا دينية وسياسية ونظمًا اجتماعية وخلقية، كانت هذه النظم جديدة على العرب لم يألفوها في جاهليتهم، فكان من الصعب على كثير منهم أن يخضعوا لها(٢).

ثانيًا: ردة من أجل المال.

هذا الفريق من المرتدين- لجهلهم- تصوروا أن الزكاة إنما كانت تُدفع لمحمد- ﷺ- علامة على خضوعهم له من الناحية السياسية، ولم يعرفوا حقيقتها في الإسلام، وكيف أنها تُؤْخَذُ من أغنيائهم لتُرَدَّ على فقرائهم سعيًا إلى تحسين الأوضاع الاجتماعية، ولم يعرفوا أنَّ الزكاة لم تُوَزَّع بعيدًا عنهم؛ لكونها تُوَزَّع بين أفراد القبيلة نفسها، وهذا ما يظهر من قول قُرَّة بن هُبَيْرَة لعمرو بن العاص «يا هذا إن العرب لا تطيب لكم نفسًا بالإتاوة، فإن أنتم أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع

(١) [الحجرات: ١٤، ١٥].

(٢) ينظر: «الدولة العربية الإسلامية» على حسن الخربوطلي، (ص: ٦٥)، القاهرة ١٩٦٠م، باختصار وتصرف.

لكم وتطيع»[١]، ولم يفهم البعض قول الله تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[٢]، وقالوا: لن ندفع زكاتنا إلَّا لمن كانت صلاته سكن لنا، وأرادوا بذلك أن الزكاة كانت محصورة على شخصية الرسول-ﷺ-، وهذا خَطَأ بَيِّنٌ.

وكان أبو بكر الصديق-رضي الله عنه- قال: والله لو منعوني عقالًا- وفي رواية: عناقًا- كانوا يؤدونه إلى رسول الله-ﷺ- لقاتلتهم على منعها، وقال: والله لأقاتلن مَنْ فَرَّقَ بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حَقُّ المال، فرأي أبي بكر الصديق-رضي الله عنه- هنا يقوم على أن إلغاء ركن من أركان الإسلام يعني هدمًا للإسلام، فلو تَسَاهَلَتْ كُلُّ قبيلة في إلغاء ركنٍ من أركان الإسلام لضاعت بقية أركانه واحدًا تلو الآخر، ولانهدم بنيانه، ولقد ظهر ذلك لعمر بن الخطاب-رضي الله عنه- حينما قال: «فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدري لما شرح به صدر أبي بكر-رضي الله عنه- فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحقُّ»[٣]، وقال ابن مسعود-رضي الله عنه- : «لقد قمنا بعد رسول الله-ﷺ- مقامًا- يعني: بالنسبة لقتال المرتدين- كدنا نهلك فيه لولا أنَّ اللهَ مَنَّ علينا بأبي بكر»[٤].

ثالثًا: الخوف من سيطرة قريش.

بعد انتقال الرسول-ﷺ- إلى الرفيق الأعلى، فكّر الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم من

(١) ينظر: «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، (٢/ ٢٠٨)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط: بيروت- دار الكتاب العربي، ط: الأولى: ١٤١٧ هـ-١٩٩٧م.

(٢) [التوبة: ١٠٣].

(٣) ينظر: «البداية والنهاية» لابن كثير، (٦/ ٣١١)، ط: دار الفكر: ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م.

(٤) ينظر: «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، (٢/ ٢٠١).

سيخلف الرسول-ﷺ- وهو الشخصية النادرة في العدل، واعتقدوا أن قريشًا إذا وليت الأمر، سوف تحوله إلى ملك عضوض، وأن من يحكم منهم فسوف يحكم هو وأهله وعشيرته، فيعلو بذلك شأن قريش وتضيع سمعة قبائلهم ويحرمون شرف السلطة، فسعوا جاهدين لكي يفوتوا الفرصة على قريش ويقاسموها ملك الجزيرة ظانين أنهم بذلك سيحدون من سيطرة قريش، وخافوا أن تفرض عليهم سلطانها وتستبق بمركز السلطة بالجزيرة(١).

رابعًا : الذين ارتدوا في حياة الرسول (ﷺ) .

أما الذين ارتدوا في حياة الرسول-ﷺ-، فمنهم من خشي من سيطرة قريش بحياة الرسول-ﷺ- وسعوا إلى سلبهم هذه السيطرة بطرائق شتى، منها أن بعضهم ادّعى النبوة؛ فبعدما قضى النبي-ﷺ- حجة الوداع، ظهر الأسود العنسي باليمن، ومُسَيلمة باليمامة، وطليحة في بني أسد، وسجاح في بني تميم، وادَّعَى كُل منهم النبوة، فكانت رِدَّةُ هؤلاء قبل وفاة النبي-ﷺ-، هذه هي حركة الرِّدَة التي يصفها بروكلمان بأنها حركة لا دَخْل لها في الدين، بل هي مجرد حركة أراد القائمون بها التخلص من سلطة المدينة غير المريحة، فلم تكن سلطة المدينة سلطة متعبة، بل كانت سلطة تسعى إلى خير البشرية، وإخراجها من ظلمات الجهل والاستعباد إلى النور، والعلم، والحرية الحَقَّة(٢).

فمن هذا يتضح أن الدافع إلى ارتدادهم رغبتهم في تضييق نطاق السلطة لقريش بالنسبة للجزيرة العربية وسعيهم في مشاركتها في السيطرة.

---

(١)ينظر: «افتراءات فيليب حَتّى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي» ، (ص: ١١٣) .

(٢)ينظر: المرجع السابق نفسه ، (ص: ١١٤) .

المطلب الثامن: زعم بروكلمان أن خالد بن الوليد قتل مالك بن نويرة بسبب أنه أُعْجِبَ بزوجته.

المناقشة والتحليل والنقد:

من الأمور التي ذكرها بروكلمان في وقت الخلفاء الراشدين قال: «عندما ظهر خالد بن الوليد في منطقه تميم، وجد الطاعة في كل مكان تقريبًا إلا أنَّ مالكًا بن نويرة سيد بني يربوع أحد بطون حنظلة، الذي انفصل عن المدينة عقب وفاة محمد-ﷺ- مباشرة ظَلَّ مؤمنًا بسجاح، بَيْدَ أنه عندما حاصره خالد بفصائله عرض أيضًا استسلامه، ومع ذلك سمح خالد بالقضاء عليه بقتله مع رجال آخرين؛ وذلك لأنه اشتهى زوجته لكونها كانت جميلة»[(١)].

وللجواب على هذه التهمة أقول:

هذ الشبهة وغيرها قد نقلها بروكلمان من اليعقوبي[(٢)] في كتابه: «التاريخ»[(٣)]، وأبي الفرج الأصفهاني، في كتابه: «الأغاني»؛ فبروكلمان واضح تأثره في هذه الشبهة بهذين الكتابين، وإذا كان المنهج العلمي يقتضي أن يُحَقِّق الباحث النصوص والروايات تحقيقًا علميًّا بمراجعة مصادر أخرى، ولا يعتمد إلا الروايات الصحيحة، فإن بروكلمان الذي أُتُّصِفَ بالجدة في البحث لم يقم بشيء من

(١) ينظر: «تاريخ الشعوب الإسلامية»: (ص: ٨٦).

(٢) اليعقوبي: أحمد بن إسحاق (أبي يعقوب) بن جعفر بن واضح اليعقوبي، مؤرخ جغرافي كثير الأسفار، من أهل بغداد كان جده من موالي المنصور العباسي، رحل إلى المغرب وأقام في مدينة أرمينية، ودخل الهند، زار الأقطار العربية غير معروف تحديدًا مولده، من مؤلفاته (تاريخ اليعقوبي)، (كتاب البلدان)، (أخبار الأمم السابقة)، اختلف المؤرخون في سنة وفاته قيل سنة (٢٨٤)، وقيل (٢٨٢) وقيل (٢٨٧)، ينظر: «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» ياقوت الحموي، (٢/ ٥٥٧)، تحقيق: إحسان عباس، ط: دار الغرب الإسلامي، ط: الأولى ١٤١٤ هـ-١٩٩٣م.

(٣) ينظر: «تاريخ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف بـ: اليعقوبي»: (٢/ ١٤٨)، طبع في مدينة ليدن المحروسة، بمطبعة بريل المسيحية ١٨٨٣م.

هذا؛ ومن ثم فإنه يكون مسؤولًا عن الرواية المفتراة، وشريكا للمفترين.

فتهمة خالد بقتل مالك بن نويرة، ونزوته على امرأته قد كثر فيها اللغط، وتشعبت فيها الآراء، واختلفت وتعددت الروايات، واختلاف الروايات وتعددها في هذه القضية من أهم أسباب ضعفها، وعدم صحتها، ولو استعرضنا بعض الروايات التي قيلت في موقف خالد مع مالك، لوجدنا أن لكل رواية ما يبطلها، ويظهر زيفها.

الرواية الأولى: رواية الطبري.

سأذكر هذه الرواية بسندها وذلك للحكم على السند قبل مناقشة المتن

«حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثنا محمد بن إسحاق، عن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، أن أبا بكر كان من عهده إلى جيوشه: أن إذا غشيتم دارًا من دور الناس فسمعتم فيها أذانًا للصلاة، فأمسكوا عن أهلها حتى تسألوهم ما الذي نقموا! وإن لم تسمعوا أذانًا، فشنوا الغارة، فاقتلوا، وحرّقوا وكان ممن شهد لمالك بالإسلام أبو قتادة الحارث بن ربعي أخو بني سلمة، وقد كان عاهد الله ألا يشهد مع خالد بن الوليد حربًا أبدًا بعدها، وكان يحدّث أنهم لما غشوا القوم راعوهم تحت الليل، فأخذ القوم السلاح قال: فقلنا: إنا المسلمون، فقالوا: ونحن المسلمون، قلنا: فما بال السلاح معكم! قالوا لنا: فما بال السلاح معكم! قلنا: فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح، قال: فوضعوها، ثم صلينا وصلوا وكان خالد يعتذر في قتله أنه قال له وهو يراجعه: ما أخال صاحبكم إلا وقد كان يقول كذا وكذا قال: أو ما تعده لك صاحبًا؟! ثم قدمه فضرب عنقه وأعناق أصحابه، فلما بلغ قتلهم عمر بن الخطاب، تكلم فيه عند أبي بكر فأكثر، وقال: عدو الله عدا على امرئ مسلم فقتله، ثم نزا على امرأته! وأقبل خالد بن الوليد قافلًا حتى دخل المسجد وعليه قباء له عليه صدأ الحديد، معتجرًا بعمامة له، قد غرز في عمامته أسهمًا، فلما أن دخل المسجد، قام إليه عمر فانتزع الأسهم من رأسه فحطمها، ثم قال: ارئاءً! قتلت امرأ مسلمًا، ثم نزوت على امرأته! والله

لأرجمنك بأحجارك- ولا يكلمه خالد بن الوليد، ولا يظن إلا أن رأي أبي بكر على مثل رأي عمر فيه- حتى دخل على أبي بكر، فلما أن دخل عليه أخبره الخبر، واعتذر إليه فعذره أبو بكر، وتجاوز عنه ما كان في حربه تلك قال: فخرج خالد حين رضي عنه أبو بكر، وعمر جالس في المسجد، فقال: هلم إليّ يا ابن أم شملة! قال: فعرف عمر أن أبا بكر قد رضي عنه فلم يكلمه، ودخل بيته، وكان الذي قتل مالك بن نويرة عبد بن الأزور الأسدي وقال ابن الكلبي: الذي قتل مالك بن نويرة ضرار بن الأزور »[1].

نقد سند هذه الرواية:

وسند هذا الخبر شديد ضعيف؛ وذلك للعلل الآتية:

١-ضعف محمد بن حميد بن حيان التميميِّ، أبي عبد الله الرازي، شيخ ابن جرير الطبري. وَثَّقه بعض النقاد، والأكثرون على تضعيفه، قال يعقوب بن شيبة: كثير المناكير. وقال البخاري: في حديثه نظر. وقال الجوزجاني: رديء المذهب غير ثقة. وقال أبو القاسم بن أخي أبي زرعة: سألت أبا زرعة عن محمد بن حميد فأومأ بأصبعه إلى فمه. فقلت له: كان يكذب؟ فقال برأسه: نعم. فقلت له: كان قد شاخ لعله كان يُعْمَلُ عليه، ويدلس عليه؟ فقال: لا يا بني كان يتعمد. وقال أبو أحمد ابن عدي: سمعت أبا حاتم الرازي في منزله وعنده ابن خراش، وجماعة من مشايخ أهل الرَّيِّ وحفاظهم، فذكروا ابن حميد، فأجمعوا على أنه ضعيف في الحديث جدًّا، وأنه يحدث بما لم يسمعه، وأنه يأخذ أحاديث أهل البصرة والكوفة فيحدث به عن الرازيين. وقال ابن خراش: حدثنا ابن حميد، وكان والله يكذب. وقال النسائي: ليس بشيء. وقال النسائي- في موضع آخر- وابن واره: كذاب. وقال ابن حبان: ينفرد عن الثقات بالمقلوبات. وقال أبو علي النيسابوري: قلت لابن خزيمة: لو حدث

(١) ينظر: «تاريخ الرسل والملوك = تاريخ الطبري» محمد بن جرير الطبري (٣/ ٢٧٩)، ط: دار التراث- بيروت، ط: الثانية- ١٣٨٧ هـ، «الكامل في التاريخ» عز الدين بن الأثير، (٢/ ٣٥٨)، «البداية والنهاية»، (٦/ ٣٢٢).

الأستاذ عن محمد بن حميد فإن أحمد قد أحسن الثناء عليه؟ فقال: إنه لم يعرفه، ولو عرفه كما عرفناه ما أثنى عليه أصلًا. وقال صالح جزرة: ما رأيت أحذق بالكذب منه. وقال الدارقطني: مختلف فيه. وقال الذهبي: وَثَّقَهُ جماعة، والأولى تركه. وقال أيضًا: ضعيف لا من قبل الحفظ. وقال ابن حجر: حافظ ضعيف، وكان ابن معين حسن الرأي فيه. تُوفِيَ سنة ٢٤٨ هـ(١).

٢- عنعنة محمد بن إسحاق بن يسار المدني، عن شيخه؛ فمحمد بن إسحاق وإن كان ثقة في المغازي والأخبار، صدوق في الأحكام وأحاديث الفقه، إلا أنهم عابوا عليه التدليس، فإذا صَرَّحَ بالتحديث أو السماع أو الإخبار عن شيخه، قُبِلَت روايته، وإذا لم يُصَرِّح رُدَّت روايته، وهنا روى بالعنعنة. قال أحمد بن حنبل: كان يدلس. وقال ابن حجر: إمام المغازي صدوق يدلس ورُمِيَ بالتشييع والقدر. وذكره ابن حجر في المرتبة الرابعة من مراتب الموصوفين بالتدليس، وقال: صدوق مشهور بالتدليس عن الضعفاء والمجهولين وعن شر منهم وصفه بذلك أحمد، والدارقطني، وغيرهما (٢).

٣- جهالة حال طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، حيث ذُكِرَ في كتب الجرح والتعديل، ولم يُذكَر فيه جرح ولا تعديل، وهذا هو المعروف عند المحدثين بالمجهول، وهو نوع

---

(١) يُنْظَر ترجمته في: «سؤالات السلمي»: (صـ: ٢٤/ برقم: ٣٠٢)، و«أحوال الرجال»: (صـ: ٢٠٧/ برقم: ٣٨٢)، و«الجرح والتعديل»: (٧/ ٢٣٢/ ١٢٧٥)، و«المجروحين»: (٢/ ٣٠٣)، و«الكامل»: (٦/ ٢٧٤/ ١٧٥٩)، و«تاريخ بغداد»: (٢/ ٢٥٩/ ٧٣٣)، و«لسان الميزان»: (٧/ ٤٩٢/ ٥٧٤١)، و«الكاشف»: (٢/ ١٦٦/ ٤٨١٠)، و«المغني»: (٢/ ٥٧٣/ ٥٤٤٩)، و«تهذيب التهذيب»: (٩/ ١١١/ ١٨١)، و«التقريب»: (صـــــ: ٤٧٥/ برقم: ٥٨٣٤).

(٢) يُنْظَر ترجمته في: «تهذيب التهذيب»: (٩/ ٣٤/ ٥١)، و«التقريب»: (صـــــ: ٤٦٧/ برقم: ٥٧٢٥)، و«تاريخ بغداد»: (١/ ٢١٤/ ٥١)، و«الكامل»: (٦/ ١٠٢/ ١٦٢٣)، و«الكاشف»: (٢/ ١٥٦/ ٤٧١٨)، و«الطبقات الكبرى»، لابن سعد: (٧/ ٣٢١)، و«الجرح والتعديل»: (٧/ ٣٨٠/ ١٠٥٣٤)، و«سؤالات البرقاني»: (صـــــ: ٥٨/ برقم ٤٢٢)، و«تاريخ الإسلام»: (٩/ ٥٨٨)، و«طبقات المدلسين»: (صـ: ٥١ / برقم: ١٢٥).

من أنواع الضعف عندهم احتياطًا. قَالَ أَبُو زُرْعَةَ: طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ مُرْسَلٌ»(١).

٤- الانقطاع حيث لم يذكر طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق الرواة الذين نقل عنهم هذه الوقعة، وبينه وبينهم على الأقل طبقة أو طبقتان من الرواة، فالرواية مرسلة، وليست متصلة، كما يظهر من حالها.

أما الرواية الثانية وهي كذلك للطبري:

«لما قدم الْبُطَاحِ(٢) بعث السرايا وأمرهم بالأذان وأن يأتوه بكل من لم يجب ومن امتنع أن يقتلوه، وكان أبو بكر قد أوصاهم أن يؤذنوا إذا نزلوا منزلًا، فإذا أقاموا الصلاة سألوهم عن الزكاة وإن أبوا فليقاتلوهم، فجاءته الخيل بمالك بن نويرة، واختلفوا في أمر إسلام مالك ومن معه، فكان أبو قتادة ممن شهد بإجابتهم للأذان، لكن بقية من كان مع أبي قتادة لم يذكروا أنهم سمعوا رد الأذان من مالك وقومه، فلما اختلفوا في أمرهم أمر بهم خالدًا، فحبسوا في ليلة باردة، فنادى منادٍ خالدًا أن دافئوا أسراكم، وكان على الأسرى ضرار بن الأزور، وهو من كنانة، وكانت كلمة (دافئوا) في لغة كنانة معناها القتل، فقتلهم ضرار وسمع خالد بذلك فخرج وقال: إذا أردا الله أمرًا أصابه»(٣).

نقد متن الروايتين.

نقل هذه الرواية بعض المؤرخين دون تعقل ولا روية ولا تحقيق لها، فمن الروايتين يتضح عدم

(١) يُنْظَر: «المراسيل»، لابن أبي حاتم (صـــ١٠١/ برقم: ٣٦٣). ويُنْظَر ترجمته في: «التاريخ الكبير»، للبخاري: (٤/ ٣٤٥/ ٣٠٧٦)، و«الجرح والتعديل»: (٤/ ٤٧٥/ ٢٠٨٧)، و«تهذيب التهذيب» (٥/ ١٧/ ٣١).

(٢) البُطاح: منزل لبني يربوع، وقيل ماء في ديار بني أسد بن خزيمة. «معجم البلدان»، (١/ ٤٤٥).

(٣) ينظر: «تاريخ الرسل والملوك = تاريخ الطبري» محمد بن جرير الطبري (٣/ ٢٧٧)، ط: دار التراث- بيروت، ط: الثانية- ١٣٨٧ هـ، «الكامل في التاريخ» عز الدين بن الأثير، (٢/ ٣٥٨)، «البداية والنهاية»، (٦/ ٣٢٢).

إسلام مالك كما أن أمر خالد للسرية أن يأتوه بمن لم يجب لداعية الإسلام، وأن مجيء الخيل بمالك يدل على عدم إسلامه وإجابته للدعوة، فلو صح إسلام مالك لذهب إلى قائد المسلمين طائعًا مختارًا معلنًا إسلامه(١).

كما أن زيف هاتين الروايتين يظهر في عدم تناسقهما فلو أن قوم مالك أتوا مع المسلمين كما قال أبو قتادة لانتفى الخلاف؛ لأنهم كانوا في الصلاة جماعة، فكيف يكون هناك خلاف وكلهم كانوا في صلاة واحدة؟! فيذكر أبو قتادة أنهم صلوا مع المسلمين وتذكر بقية الفصيلة أنهم لم يصلوا! فهذا تناقض واضح ولا يمكن أن يقع مثل هذه الصورة، ولو علم الجيش بأمر أبي قتادة لما أحضروا قوم مالك إلى خالد، وأيضًا لما وضعهم خالد حتى يتحقق من أمر إسلامهم(٢).

ولهذا قال الشيخ عرجون: «وهذه الرواية في أصلها وفروعها لا نطمئن إلى قبولها، بل نكاد نجزم أنها رواية ملفقة مصنوعة، وأن صانعها عريض الوسادة»(٣).

الرواية الثالثة.

يقول اليعقوبي: «فأتاه مالك بن نويرة يناظره واتبعته امرأته فلما رآها خالد أعجبته فقال: والله لا نلت ما في مثابتك حتى أقتلك، فنظر مالكًا فضرب عنقه، وتزوج امرأته»(٤).

(١) «خالد بن الوليد» صادق إبراهيم عرجون ، (ص: ١٤٦) ، ط: الرياض- الدار السعودية ، ط: الثالثة: ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م .

(٢) «افتراءات فيليب حَتّى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي» ، (ص: ١١٥- ١١٦) ، وأيضًا: شوقي أبو خليل ، «بروكلمان في الميزان» ، (ص: ٩١ -٩٣) .

(٣) «خالد بن الوليد» صادق إبراهيم عرجون ، (ص: ١٦١) ، ط: الرياض- الدار السعودية ، ط: الثالثة: ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م .

(٤) ينظر: «تاريخ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف بـ: اليعقوبي»: (٢/ ١٤٨) .

الرواية الرابعة.

يذكر أبو الفرج الأصفهاني في «الأغاني»: «أنه لما تنبأت (سجاح)[١] اتبعها مالك ثم أظهر أنه مسلم، فضرب خالد عنقه، فطعن عليه جماعة من الصحابة لأنه تزوج امرأة مالك بعده، وقد كان يقال إنه كان يهواها في الجاهلية، واتهم بأنه قتل مسلمًا ليتزوج امرأته من بعده»[٢].

الرواية الخامسة.

وفي رواية أخرى يقول فيها الأصفهاني: «إن ليلى كانت مع زوجها (مالك) وهو يناظر خالدًا، فلما سمعته يقول: «إني قاتلك، ووالله لأقتلنك، ألقت بنفسها على قدمي الفاتح تلتمس منه العفو، وقد انسدل شعرها على كتفيها وبلل الدمع منها عينين زانهما الحور فزادهما سحرًا، ونظر خالد إلى وجهها البارع- وهي ترنو إليه مستعطفة مسترحمة- نظرة هوى وإعجاب، فصاح مالك: إنني مقتول لا محالة، وأجاب خالد: ما لهذا والله، إنما قضى عليك كفرك، وأمر بضرب عنقه»[٣].

كثرت الروايات في هذا الأمر حتى صارت لغطًا، ليس للعقل فيها مجال، وتَدَخَّلَ الدساسون من خلال هذا اللغط ليضعوا في سيرة الرجل ما يشينه، ويحط من قدره، ونقلها الرواة المسلمون من غير تدبر، ولا تفكير.

---

(١)سجاح بنت الحارث بن سويد التغلبية ، وكانت من نصارى العرب ، وادعت النبوة بعد موت النبي ﷺ وحدوث الرّدّة في القبائل ، وقد اجتمع معها مسيلمة الكذاب ، وأقامت في قومها بني تغلب إلى زمان معاوية فأجلاهم عنها عام الجماعة ، ويذكر أنها أسلمت وحسن إسلامها وانتقلت إلى البصرة ومات بها سنة (٥٥ه)ـ ، وأنه صلى عليها سمرة بن جندب عامل معاوية إذ ذاك على البصرة ، وقيل: غير ذلك . «البداية والنهاية» ، (٦/ ٣١٩-٣٢١) ، «الكامل في التاريخ» ، (٢/ ٣٥٤-٣٥٧) .

(٢) ينظر: «الأغاني» أبي الفرج الأصفهاني ، (١٥/ ١٩٩) ، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط: الأولى/ ١٤١٥ هـ .

(٣) ينظر: «المرجع السابق» ، (١٥/ ٢٠٠) .

ومن أقوى الأدلة على أن مالكًا لم يكن مسلمًا قول عمر بن الخطاب لمتمم بن نويرة (أخي مالك): «لوددت أني رثيت أخي زيدًا بمثل ما رثيت به مالكًا أخاك، فقال له متمم: يا أبا حفص، والله لو علمت أن أخي صار حيث صار أخوك ما رثيته، فقال عمر: ما عزّاني أحد عن أخي مثل تعزيته»[(١)].

وهذا يدل على أن مالكًا لم يكن مسلمًا وإلا لعرف ذلك أقرب الناس إليه، وهو أخوه متمم، ولما رثاه، ولعلم أنه مات مسلمًا صادقًا فالجنة مثواه.

والروايات الواردة في موقف عمر ﷺ من خالد بن الوليد ﷺ بعد قتله مالك بن نويرة لم تثبت، وأيضًا فإن فيها أن السرية التي كانت مع خالد ﷺ اختلفت في أمر مالك وأصحابه هل عادوا إلى الدين وأذّنوا وأقاموا أم تمسكوا بما هم فيه من الردة، ومنع الزكاة.

وقد قال ابن تيمية ﷺ تعالى: "وليس عندنا أخبار صحيحة ثابتة بأن الأمر جرى على وجه يوجب قتل خالد، وأما ما ذكر من تزوجه بامرأته ليلة قتله، فهذا مما لم يعرف ثبوته"[(٢)].

فهذه الرواية التي اعتمدها بروكلمان وتدّعي أن خالدًا أراد قتل مالك بن نويرة بسبب زوجته لا قيمة لها لضعفها كما ذكرنا، وقد تأثر فيها بروكلمان باليعقوبي كما أشرت وربما تأثر اليعقوبي بالطبري وغيره، وبمراجعة المصادر التاريخية الأصيلة في هذه القصة لوجدنا أنها لم تأت على هذه الشاكلة؛ فعلى سبيل المثال لو راجعنا كتاب (وفيات الأعيان) في خبر مقتل مالك لوجدناه يورد القصة بخلاف ما أوردها بروكلمان؛ فابن خلكان أورد القصة على النحو التالي «ولما خرج خالد بن الوليد ﷺ لقتالهم في خلافة أبي بكر الصديق-ﷺ- نزل على مالك وهو مقدم قومه بني يربوع وقد

(١)«بروكلمان في الميزان» ، (ص: ٩٢) .

(٢) «مختصر منهاج السنة» لابن تيمية ، (ص: ٢٦٨) ، اختصره الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان ، الناشر: دار الصديق للنشر والتوزيع ، صنعاء –اليمن ، ط: الثانية ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م .

أخذ زكاتهم وتصرّف فيها، فكلمه خالد في معناها، فقال مالك: «أنا آتي بالصلاة دون الزكاة، فقال له خالد: أما علمت أن الصلاة والزكاة معًا لا تقبل واحدة دون أخرى، فقال مالك: قد كان صاحبك يقول ذلك، قال خالد: أو ما تراه لك صاحبًا؟! والله لقد هممت أن أضرب عنقك، ثم تجاولا في الكلام طويلًا، فقال له خالد: إني قاتلك، قال له: أو بذلك أمرك صاحبك؟ قال: هذه بعد تلك؟ والله لأقتلنك»[(١)].

ومن هنا نستوثق أن خالدًا ﷺ قتل مالك بن نويرة معتقدًا أنه مرتدٌ؛ لأنه فرق بين الزكاة والصلاة، ولم يؤمن بوجوب الزكاة كما في الرواية التي ذكرتها كتب التاريخ، هذا فضلا عن التضارب في الروايات حينًا وتناقضها حينًا آخر، وهذه التهمة ما أرادت إلا التشنيع والحط من قيمة رجل ما هُزم لا في جاهلية ولا في إسلام، وسيف الله المسلول، والمقبول بلا شك من جمهور المسلمين وقادتهم، فلا يعقل أن يقدم على قتل رجل للحصول على زوجته مهما كانت جميلة؛ فجميلات العرب كانوا كُثر، وكانت الواحدة منهن تتمنى أن تكون زوجة لبطل مثل خالد-ﷺ-.

براءة خالد بن الوليد ﷺ :

أما موضوع أم تميم وقصة خالد وزواجه بها، فقد اختلفت الروايات في كيفية اتصال خالد بأم تميم أرملة مالك بن نويرة، كما اختلفت في مقتل مالك؛ فبعض الروايات تقول إن أم تميم كانت مسلمة وقد انفصلت[(٢)]، عن مالك بمجرد ارتداده عن الإسلام إلا أنها ظلت محبوسة عنده.

وثانية تقول إن خالدًا قد اشتراها من الفيء وتزوجها، وقيل إنها اعتدت بثلاث حيضات وتزوج

(١) «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» لابن خلكان ، (٦/ ١٦) ، تحقيق: إحسان عباس ، ط: دار صادر- بيروت ، ط: السابعة ١٩٩٤م .

(٢) «خالد بن الوليد» صادق إبراهيم عرجون، (ص: ١٧١) .

بها[١]، وهذه الرواية أقرب إلى التصديق، فهذا أمر معقول ومقبول صدوره من خالد جبرًا لخاطرها وتطييبًا لنفسها، وحينئذٍ يجب أن نفرض بقاءها على الإسلام وعدم وموافقتها مالكًا على ردته، وذلك تأويل من زعم أنها كانت مطلقة منه، محبوسة عنده؛ لأن ردته فصلت بينهما واستبقاها تحته ظلمًا حتى استنقذها خالدٌ فتزوجها، ويكون الذي عِيب على خالد أنه تزوجها في أيام الحرب، لا سيما إن كان المتزوج بها من نساء الأعداء والمعركة ما تزال ناشبة، فإنه حينئذ يخشى من التجسس والفتك بالأبطال، ولعل خالد تيقن إخلاصها للإسلام فخلصها [٢].

وفي قصة زواج النبي-ﷺ- بالسيدة صفية بنت حيي ما يحمل أقوى دفاع عن خالد في هذه القضية[٣].

(١)«خالد بن الوليد» صادق إبراهيم عرجون، (ص: ١٧١) .

(٢) المرجع السابق، (ص: ١٧٢) .

(٣)«المرجع السابق، الصفحة نفسها.

المطلب التاسع: زعم بروكلمان أن عثمان بن عفان كان ناقص الكفاءة الشخصية.

المناقشة والتحليل والنقد:

يذكر كارل بروكلمان عن عثمان بن عفان-رضي الله عنه-: «وقد يكون أصله الأرستقراطي هذا الذي عوّضه من قلة مقدرته الشخصية حتى في عيني النبي-صلى الله عليه وسلم-»(١).

ولسنا ندري ماذا يريد بروكلمان من هذا النص الذي كتبه حول عثمان بن عفان-رضي الله عنه- فهل يريد أن يقول: إن النبي-صلى الله عليه وسلم- اختار عثمان-رضي الله عنه- ليكون صهره، بسبب غناه وثروته، ومظهره الأرستقراطي، كما يقول بروكلمان، واعتبر الرسول-صلى الله عليه وسلم- أن ثراء عثمان يعادل نقص كفاءته الشخصية، وعلى ذلك عقد معه على كريمتيه رقية، وأم كلثوم، وهذه رمية من غير رامٍ؛ لأن الرسول-صلى الله عليه وسلم- لم يكن ينظر في معاملة أصحابه إلى شيء، غير التقوى، والصلة الخالصة بالله رب العالمين، والعمل الصالح والخلق الفاضل، وقد كان رسول الله-صلى الله عليه وسلم- راضيًا كل الرضا عن عثمان؛ لتقواه وعمله الصالح، فقال مرة: اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض(٢)، فإذا دخلنا في هذه القضية التي ذكرها بروكلمان، نجد أن الدافع للرسول-صلى الله عليه وسلم- في علاقته مع عثمان، ورضاه به لم يكن لشيء من أمور الدنيا، ولم يكن عثمان تنقصه الكفاءة الشخصية في عهد الرسول-صلى الله عليه وسلم- ولا بعد وفاته، وإلا لما اختاره من أهل الشورى، الذين عَيَّنَهُم عمر-رضي الله عنه- لاختيار مَن يخلفه، فاختياره من الستة دليل واضح على أنه كان من أكفأ الموجودين، وأصلحهم لرعاية شؤون المسلمين؛ فكيف يقول

---

(١) «تاريخ الشعوب الإسلامية»، (ص: ١١٠).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، (٥/ ٢٨) والترمذي في جامعه، (٣٧٠٠) وقال: حديث غريب، والحاكم في المسند، (٣/ ١١٠) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والطبراني في "الأوسط" (٦٢٨١) عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه. وإسناده حسن، وحسنه محققو "مسند أحمد" (٢٠٦٣٠).

بروكلمان إن أصله الأرستقراطي هو الذي عادل نقص كفاءته عند النبي -ﷺ-!

يستطرد بروكلمان بعد ذلك في الصفحة نفسها، فيقول: «وليس مِن شَكٍّ أيضًا فإن أعضاء المجلس من كبار الصحابة آثروا اختياره رغبة عنه في أن يروا على رأس المسلمين رجلًا يستطيعون توجيهه، والتعامل معه في سهولة ويسر»[1]؛ فالمعنى الذي قصده بروكلمان أن اختيار الصحابة لعثمان؛ لأنه كان ضعيفًا، بحيث يمكن توجيه السيطرة عليه، قولٌ لم يقل به أحد، ولم يكن له واقع في التاريخ، فإن أعضاء المجلس الذي عَيَّنَهُ الخليفة الراحل لم يكن أحد منهم يعرف مَن منهم سيكون الخليفة إلى آخر لحظة، وهذا ما يظهر من قصة الشورى، فلا بُدَّ من مراجعة ذلك حتى يتضح الأمر أكثر، فإنَّ أعضاء مجلس الشورى الذين اختارهم عمر -رضي الله عنه- رأى أنهم أفضل القوم ممن بَقِيَ من بعد النبي -ﷺ- وتُوفِّيَ النبيُّ -ﷺ- وهو عنهم راض، وأنهم يخافون ربهم ويتقونه حق تقاته، ولم يكن لهم منهج يسيرون عليه إلا منهج النبي -ﷺ- ثم أمرهم أن يتشاوروا ثلاثة أيام، ولا يأتي اليوم الرابع إلا وعليهم أمير منهم، وبناء على رغبة أمير المؤمنين عمر في سرعة البت في هذه القضية، أخرج عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه- نفسه من هذا الأمر على أن يكون حَكَمًا يختار من يراه أقوى وأصلح لولاية أمر المسلمين، وعرض أعضاء مجلس الشورى على عبد الرحمن بن عوف، وأخذوا منه ميثاقه على أن يؤثر الحق، ولا يتبع الهوى، ولا يخص ذا رحم، ولا يألو الأمة نصحًا، كما أعطوه مواثيقهم على أن يكونوا معه على من يبدل أو يُغَيِّر، وأن يرضوا على مَن يقع اختياره عليه، وبذل عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه- جهده في التحري عن الأصلح والأقوى لحمل مسؤولية الخلافة، وانحصرت الآراء كلها في رجلين من الستة؛ هما عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب -رضي الله عنهما- فأصبح موقف عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه- دقيقًا جدًّا في تفضيل أحد هذين الرجلين على الآخر، فدعا

(١) «تاريخ الشعوب الإسلامية»، (ص: ١١٠).

عليًّا، وقال: عليك عهد الله وميثاقه، لتعملن بكتاب الله، وسنة رسوله-ﷺ- وسيرة الخليفتين من بعده، قال: أرجو أن أفعل فأعمل بمبلغ علمي وطاقتي، ودعا عثمان، فقال له مثلما قال علي فقال: نعم نعمل، فرفع رأسه إلى سقف المسجد، ويده في يد عثمان، فقال: اللهم اسمع واشهد، اللهم إني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان، فبايعه(١)، وهنا تسقط دعوى بروكلمان من أولها إلى آخرها لعدم وجود سَنَدٍ يُعْتَمَدُ عليه فيما يزعم(٢).

المطلب العاشر: زعم بروكلمان أن جمع القرآن حصل في عهد عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-.

المناقشة والتحليل والنقد:

على الرغم من تَبَحُّرِ المؤلف في اطلاعه على تاريخ الشعوب الإسلامية، وقد ظهر هذا جليًّا في كتابه، فإن ذلك لم يمنع من ورود بعض الأخطاء التاريخية- بقصد أو بغير قصد- كما في قوله: «فلما كانت خلافة عمر عهد إلى زيد بن ثابت، المدني الشاب الذي كان يكتب الوحي للرسول، بأن يجمع صحف القرآن كلها(٣).

فالمعروف أن من أَمَرَ زيدًا بجمع القرآن هو الخليفة الأول أبو بكر الصديق-رضي الله عنه- بإشارة من عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- عندما استُشهد عدد كبير من القُرَّاء في معركة اليمامة ضد المرتدين من بني حنيفة بزعامة مسيلمة الكذاب، يقول الشيخ الزرقاني-رحمه الله-: «ألقت الخلافة قيادَها إلى أبي بكر-رضي الله عنه- بعد غروب شمس النبوة، وواجهت أبا بكر في خلافته هذه أحداثٌ شدادٌ، ومشكلات صعاب؛ منها موقعة اليمامة سنة اثنتي عشرة للهجرة، وفيها دارت رحى الحرب بين المسلمين، وأهل الردة من أتباع مسيلمة الكذاب، وكانت معركة حامية الوطيس، استُشهد فيها كثير من قُرَّاء الصحابة،

(١) يُنْظَر: « تاريخ الرسل والملوك = تاريخ الطبري» ، (٤/ ٢٣٣) .

(٢) ينْظَر:«افتراءات فيليب حَتّى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي» ، (ص: ١٢٠ – ص: ١٢١) .

(٣) «تاريخ الشعوب الإسلامية»: (ص: ١١٣) .

وحَفَظَتهم للقرآن، ينتهي عددهم إلى السبعين، وأنهاه بعضهم إلى خمسمائة، من أجلِّهم سالم مولى أبي حذيفة، ولقد هال ذلك المسلمين، وعزَّ الأمر على عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-، فدخل على أبي بكر، وأخبره الخبر، واقترح عليه أن يجمع القرآن، خشية الضياع بموت الحفظة، وقتل القرَّاء، فتردد أبو بكر أول الأمر؛ لأنه كان وقَّافًا عند حدود ما كان عليه الرسول-ﷺ- يخاف أن يجرَّه التجديد إلى التبديل، أو يسوقه الإنشاء والاختراع، إلى الوقوع في مهاوي الخروج والابتداع، لكنه بعد مفاوضة بينه وبين عمر تَجَلَّى له وجهُ المصلحة، فاقتنع بصواب الفكرة، وشرح الله صدره، وعلم أن ذلك الجمع الذي يشير به عمر-رضي الله عنه- ما هو إلا وسيلة من أعظم الوسائل النافعة إلى حفظ الكتاب الشريف، والمحافظة عليه من الضياع والتحريف، وأنه ليس من مستحدثات الأمور الخارجة، ولا من البدع والإضافات الفاسقة؛ بل هو مستمدٌّ من القواعد التي وضعها الرسول بتشريع كتابة القرآن، واتخاذ كتَّاب للوحي، وجمع ما كتبوه عنده، حتى مات-ﷺ-»[1].

ويؤكد هذا ما أورده الزركشي في هذا الصدد؛ حين قال: «وروى البخاري في صحيحه، عن زيد بن ثابت قال: أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستحر القتل بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله-ﷺ-؟ فقال عمر: والله إن هذا خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، وقد رأيت في ذلك الذي رأى عمر، قال زيد: وقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا أتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله-ﷺ- فتتبع القرآن واجمعه، قال زيد: فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال

(١) ينظر: «مناهل العرفان في علوم القرآن» محمد عبد العظيم الزرقاني، (١/ ٢٤٩) ، ط: مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط: الثالثة ، بدون .

ما كان بأثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله-ﷺ؟ فقال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتتبَّعْت القرآن أجمعه من العُسُب، والرقائع، واللِّخاف، وصدور الرجال، حتى وجدت آخر التوبة: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة : ١٢٨]، مع خزيمة الأنصاري- الذي جعل النبي-ﷺ- شهادته بشهادة رجلين ، لم أجدها مع أحد غيره، فألحقتها في سورتها فكانت في الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى قبض، ثم عند حفصة بنت عمر»[(١)].

وبناءً على ما سبق، يمكن القول إن ادعاء بروكلمان بأن القرآن تم جمعه في عهد عمر بن الخطاب هو ادعاء غير صحيح، وليس له أي سند تاريخي.

(١) ينظر: «البرهان في علوم القرآن» ، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي ، (١/ ٢٣٣) ، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم ، ط: دار إحياء الكتب العربية ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ط:الأولى: ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م . والحديث أخرجه الإمام البخاري في «صحيحه» ، كِتَابُ «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» ، بَابُ قَوْلِهِ:{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} «مِنَ الرَّأْفَةِ» ، (٦/ ٧١) ، برقم: (٤٦٧٩) .

الخاتمة والنتائج والتوصيات

بعد قضاء رحلة من الوقت في تلك الجولة العلمية مع هذا المستشرق الألماني كارل بروكلمان، ومعايشة جزء من كتابه: «تاريخ الشعوب الإسلامية»، وتناول بعض آرائه في حقبة تاريخية مهمة، وهي فترة الخلفاء الراشدين، وقد توصلت إلى بعض النتائج الآتية:

١- إن بعض الروايات التي جاء بها بروكلمان، واعتمد عليها ضعيفة وواهية، وهي لا تصمد أمام النقد التاريخي، ومنهج البحث العلمي.

٢- لم يكن المستشرقون على رأي واحد، وتفسير واحد، ورؤية واحدة للظاهرة من شتى الجوانب الحضارية، والاجتماعية، والإنسانية في هذا التاريخ العريق.

٣- وردت في كثير من فصول كتاب بروكلمان تحيزات فاضحة وواضحة ضد العرب والمسلمين تدل على النَّفَس الاستشراقي، والتعصب الديني، وبصيغ مختلفة، مثل: الوحشية، والبربرية، وحب المال، وغيرها.

٤- على الرغم مما ورد في بعض كتب بروكلمان من بعض الطعن في التراث العربي الإسلامي، فإن بعض المؤلفات- لا سيما موسوعته الشهيرة «تاريخ الأدب العربي» - لا يُمْكِنُ لأي باحث في التراث الإسلامي، وفي تخصص المخطوطات أن يستغني عنها لأهميتها.

٥- من خلال الدراسة، يتبين الضعف الواضح لمثقفي الأمة الإسلامية في مجال اللغات والترجمة؛ بحيث إن كل مشاريع الغزو الفكري تمر، ونحن لا نتقن سوى لغة واحدة، بينما مستشرق واحد مثل بروكلمان يتقن (١١) لغة.

٦- رغم تَبَحُّرِ المؤلفِ في اطلاعه على تاريخ الشعوب الإسلامية، فإن ذلك لم يمنع من ورود بعض الأخطاء التاريخية، بقصد أو بغير قصد.

وأما عن أهم التوصيات التي توصلت إليها من خلال البحث، فجاءت على النحو الآتي:

١ – إعادة نقدِ وتمحيصِ كل كتابات بروكلمان وَفْقَ نظرة علمية أكاديمية محايدة، وغير متحيزة.

٢ – إقامة مراكز بحثية متخصصة للرد على شبهات المستشرقين قديمًا وحديثًا، وتصحيح الأفكار، وتحصين الأفهام.

٣– إقامة مؤتمرات علمية في حواضر العالم الإسلامي تحمل على عاتقها تحرير التراث الاستشراقي؛ لتجنب الضار، والأخذ بالنافع المفيد.

٤ – إعادة نقد كل كتابات المستشرقين بحسب مدارسهم المختلفة، وأصولهم المتباينة وَفْقَ منهج علمي سليم ومنصف.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل . .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الباحث

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- «آثار الاستشراق الألماني في الدراسات القرآنية» أمجد يونس الجنابي، ط: مركز تفسير للدراسات القرآنية- الرياض، ط: الأولى ١٤٣٦ هـ ٢٠١٥.
- «أحكام القرآن» تأليف: أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، ط: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط: الأولى، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤م.
- «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» ياقوت الحموي، تحقيق: إحسان عباس، ط: دار الغرب الإسلامي، ط: الأولى ١٤١٤ هـ- ١٩٩٣م.
- «أركان البادية» د: إبراهيم كريدية، ط: مكتبة نوفل – بيروت – لبنان، ط: الخامسة ٢٠٠٥م.
- «أسد الغابة» تأليف: علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، ابن الأثير، ط: دار الفكر – بيروت، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م.
- «افتراءات المستشرق بروكلمان على التاريخ العربي الإسلامي» د: محمد العيساوي، ط: دار عمار للنشر والتوزيع- عمان، ط: ١٤٣٥ه، ٢٠٠٠٤م.
- «افتراءات فيليب حَتّي وكار بروكلمان على التاريخ الإسلامي»، عبد الكريم علي باز السعودية، ط: الأولى: ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.
- «الاستشراق رسالة استعمار غربي» د: محمد إبراهيم الفيومي، ط: دار الفكر العربي – القاهرة ١٤١٣ هـ- ١٩٩٣م.
- «الاستشراق في التاريخ الإشكاليات، الدوافع، التوجهات، والاهتمامات» د: عبد الجبار ناجي، ط: المركز الأكاديمي للأبحاث، ط: الأولى – بيروت ٢٠١٣م.
- «الاستشراق قراءة نقدية» صلاح الجابري، ط: دار الأوائل للنشر والتوزيع- دمشق، ط: الأولى ٢٠٠٩م..

- «الاستشراق والتاريخ الإسلامي» د: فاروق عمر فوزي، ط: الأهلية للنشر والتوزيع؛ عمان، ط: الأولى ١٩٩٨م.
- «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري» أ.د: محمود حمدي زقزوق، ط: دار المعارف- القاهرة، ١٩٩٧م.
- «الاستشراق والمستشرقون .. ما لهم وما عليهم» د: مصطفى السباعي، دار الوراق- الرياض، ط: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.
- «الاستشراق وموقفه من السنة النبوية» فالح محمد فالح الصغير، ط: المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، بدون.
- «الاستشراق، أهدافه، ووسائله: دراسة تطبيقية حول منهج الغربيين في دراسة ابن خلدون» د: محمد فتح الله الزيادي، ط: دار قتيبة، ط: الأولى ١٤٢٦ هـ- ١٩٩٨م.
- «الاستشراق» إدوارد سعيد، ترجمة كمال أبو ديب، ط: مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط: الثامنة ٢٠١٠م.
- «الإصابة في تمييز الصحابة» تأليف: أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى - ١٤١٥ هـ.
- «الأغاني» أبي الفرج الأصفهاني، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: الأولى/ ١٤١٥ ه.
- «البداية والنهاية» لابن كثير، ط: دار الفكر: ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م.
- «البرهان في علوم القرآن»، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابى الحلبي، ط:الأولى: ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م

- «التبشير والاستشراق بين النظرية والتطبيق» أ.د: بكر زكي عوض، أ.د: عبد القادر سيد عبد الرؤوف، ط:١٤٢٥ه- ٢٠٠٤م.
- «الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية .. (المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه)»، رودي بارت، ترجمة: مصطفى ماهر، ط: القاهرة: دار الكتاب العربي. بدون.
- «الدعوة إلى الإسلام» توماس أرنولد، ترجمة د حسن إبراهيم حسن، ود عبد المجيد عابدين إسماعيل النحراوي، ط: مكتبة النهضة المصرية ١٩٧١م.
- «الدولة العربية الإسلامية» على حسن الخربوطلي، القاهرة ١٩٦٠م.
- «السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون» نور الدين الحلبي، ط: در الكتب العلمية، ط: الثانية ١٤٢٧ هـ.
- «السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة» د: محمد أبو شهبة، ط: دار القلم – دمشق، ط: الثامنة ١٤٢٧ه.
- «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي»د: محمد البهي، ط: مكتبة وهبة- القاهرة، ط: االثانية ١٤٢٨ هـ- ٢٠٠٧م.
- «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط: بيروت: دار الكتاب العربي، ط: الأولى: ١٤١٧ هـ-١٩٩٧م.
- «المستشرقون البريطانيون»، ا. ج آربري، تعريب: محمد الدسوقي النويهي ، ط: وليم كولينز، لندن: ١٩٤٦م.
- «المستشرقون»، نجيب العقيقي، ط: دار المعارف القاهرة، ط: الثالثة ١٩٦٤م.
- «أوراق في التاريخ والحضارة، أوراق في الفكر والثقافة» د: عبد العزيز الدوري، ط: مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط: الثانية: ٢٠٠٩م.

- «تاريخ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح المعروف بـ: اليعقوبي»، طبع في مدينة ليدن المحروسة، بمطبعة بريل المسيحية ١٨٨٣م.
- «تاريخ الأدب العربي» كارل بروكلمان، تقديم، د: محمود حجازي، ط: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٣م.
- «تاريخ الاستشراق وسياساته»، زكاري لوكمان، ط: دار الشروق – القاهرة، ط: الأولى ٢٠٠٧م.
- «تاريخ الأمة القبطية» يعقوب نخلة روفيلة، تقديم، د: جودت جبرة، ط: مؤسسة مارمرقس لدراسة التاريخ، القاهرة ٢٠٠٠م.
- «تاريخ الرسل والملوك المسمى بـ: تاريخ الطبري» محمد بن جرير الطبري، ط: دار التراث – بيروت، ط: الثانية: ١٣٨٧ هـ.
- «تاريخ الشعوب الإسلامية»، تعريب: نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، ط: دار العلم للملايين- بيروت، ط: الخامسة، ١٩٦٨م.
- «تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي رؤية قبطية للفتح الإسلامي» ترجمة ودراسة د: عمر صابر عبد الجليل، ط: دار عين للدراسات والبحوث – القاهرة ٢٠٠٣م.
- «تاكيتوس والشعوب الجرمانية» إبراهيم علي طرخان، القاهرة ١٩٥٩م.
- «تايخ دمشق» تأليف: علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م.
- «تثبيت دلائل النبوة» تأليف: القاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني، الناشر: دار المصطفى، شبرا- القاهرة.
- «تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي»، عبد الجبا ناجي، ط: دار الحرية للطباعة، بغداد: ١٩٨١م.

- «حول الاستشراق مقدمات أولية» عبد الله عبد الرحمن الوهيبي، ط: مركز البيان للبحوث والدراسات- الرياض، ط: الأولى ١٤٣٥ هـ.
- «خالد بن الوليد» صادق إبراهيم عرجون، ط: الرياض: الدار السعودية، ط: الثالثة: ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.
- «خطط الشام» محمد بن عبد الرزاق بن محمَّد، كُرْد عَلي، ط: مكتبة النوري، دمشق ط: الثالثة، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.
- «رؤية إسلامية للاستشراق» أحمد عبد الحميد غراب، ط: مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الرياض: ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م.
- «طبقات المستشرقين»، د: عبد الحميد صالح حمدان، مكتبة مدبولي- القاهرة، بدون،
- «فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر»، أحمد سمايلوفتش، ط: دار الفكر العربي – القاهرة، ١٤١٨ هـ- ١٩٨٩م.
- «كارل بروكلمان شخصيته ومنجزاته» بقلم المستشرق غونتر كرال (**Gunther Kral**)، مجلة المعرفة، الناشر: وزارة الثقافة، السنة الرابعة، العدد (٤٨)، شباط ١٩٦٦م.
- «كارل بروكلمان في الميزان» د: شوقي أبو خليل، ط: دار الفكر، دمشق، ط: الأولى: ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م.
- «لمحات في المكتبة والبحث والمصادر» محمد عجاج الخطيب، ط: مؤسسه الرسالة- بيروت، ٢٠٠١م.
- «مناهل العرفان في علوم القرآن» محمد عبد العظيم الزرقاني، ط: مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط: الثالثة، بدون.

- «موسوعة المستشرقين» د: عبد الرحمن بدوي، ط: دار العلم للملايين، بيروت، ط: الثالثة ١٩٩٣م.
- «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» لابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، ط: دار صادر – بيروت، ط: السابعة ١٩٩٤م.

فهرس المحتويات

المحتويات

الملخص ٩١٣
المقدمـــة ٩١٥
أهمية الموضوع ٩١٧
مشكلة البحث ٩١٧
هدف البحث ٩١٧
الدراسات السابقة ٩١٨
منهج البحث ٩١٨
خطة البحث ٩١٨
المبحث الأول: الاستشراق: تعريفه، وأهدافه، ودوافعه ٩٢١
المطلب الأول: تعريف الاستشراق ومفهومه. ٩٢١
المطلب الثاني: أهداف الاستشراق، ودوافعه. ٩٢٥
أولاً: الدافع الديني. ٩٢٥
ثانيًا: الدافع الاستعماري. ٩٢٧
ثالثًا: الدافع السياسي وأهدافه. ٩٣٠
رابعًا: الدافع الاقتصادي. ٩٣٣
خامسًا: الدافع العلمي أو الثقافي ٩٣٤
المبحث الثاني: التعريف بالمستشرق كارل بروكلمان، وكتابه: «تاريخ الشعوب الإسلامية» . ٩٣٧

المطلب الأول: ترجمة موجزة للمستشرق الألماني كارل بروكلمان ٩٣٧
أهم مؤلفات بروكلمان ٩٤٤
المطلب الثاني: تعريف موجز بكتاب «تاريخ الشعوب الإسلامية». ٩٤٧
المبحث الثالث: تحليل نقدي لبعض آراء المستشرق كارل بروكمان عن عصر الخلفاء الراشدين في كتابه: «تاريخ الشعوب الإسلامية» ٩٥٥
المطلب الأول: زعم بروكلمان خضوع الأنصار لسلطان المهاجرين؛ لكونهم الأغلبية.. ٩٥٦
المطلب الثاني: زعم بروكلمان أن المسلمين العرب كانوا غزاة قساة مخربين. ٩٥٩
المطلب الثالث: زعم بروكلمان أن أبا بكر الصديق لم يكن يحالفه التوفيق على الساحة الدولية.
..... ٩٦٣
المطلب الرابع: زعم بروكلمان أن الحسن بن علي آثر مفاوضة معاوية، وتنازل عن حقه في الخلافة..... ٩٦٦
المطلب الخامس: وصف بروكلمان فترة الجهاد في عهد الخلافة الراشدة؛ فأصبح الهدف من الجهاد هو جلب المال والغنى لا نشر العقيدة والإسلام. ٩٦٩
المطلب السادس: زعم بروكلمان أن الإسلام في عهد الخلافة الراشدة انتشر بحد السيف.
..... ٩٧٢
المطلب السابع: زعم بروكلمان أن روح الردة اجتاحت بلاد العرب بأكملها، ٩٧٥
المطلب الثامن: زعم بروكلمان أن خالد بن الوليد قتل مالك بن نويرة ٩٧٩
المطلب التاسع: زعم بروكلمان أن عثمان بن عفان كان ناقص الكفاءة الشخصية..... ٩٨٩
المطلب العاشر: زعم بروكلمان أن جمع القرآن حصل في عهد عمر بن الخطاب. ٩٩١
الخاتمة والنتائج والتوصيات ٩٩٤

فهرس المصادر والمراجع ٩٩٦

فهرس المحتويات ١٠٠٢